رواية

محمد البساطي



محمد البساطي

دقّ الطبول

رواية

دار الآداب - بيروت

دقّ الطبول

محمد البساطي/روائيّ مصريّ

الطبعة الأولى عام 2006

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

«هو بعيد، ويزداد ابتعاداً كلَّما كبر.
أكتفي بمشاهدته عن بعد.
ربما كان اقترابي لا يريحه»

جئت للعمل بالإمارة مع كثيرين جاءوا من أنحاء الدنيا. كان البترول ظهر بها منذ سنوات، وتغيَّرت الحال. شُيِّدت المباني الحديثة بواجهاتها الزجاجيَّة «الفيميه» تحجب الشمس الحارقة ومحلات كبيرة بأدوارها المتعدِّدة وسلالم كهربائيَّة، وملاهٍ بأحدث الألعاب وشبكات مياه وصرف صحي، ومُهدت الطرق، وارتفعت كباري بطابقين وثلاثة، وامتدت صفوف الأشجار في الشوارع حتى الضيِّقة منها ووصلت لحدود رمال الصحراء لتحيط بالصُّوَب الهائلة المتناثرة هناك لزراعة الخضروات. ومع زيادة العمران اتَّسعت المدينة ونشأت الضواحي، تجمعات من الفيلات الجميلة بأعمدة وزخارف وحمّامات سباحة حول كل منها حديقة تأتي شتلات أشجارها وورودها بالطائرة من الخارج.

كنّا نحن المستخدمين خليطًا من جنسيَّات مختلفة، الكثرة جاءت من الفلبين ربما لجديَّتهم في العمل وسرعتهم في أدائه، وربما أيضًا لصغر قاماتهم، فلا يشغل الواحد منهم حيِّزًا كبيرًا، وكان ذلك بشكل ما يريح من يتعامل معه من أهل الإمارة.

تكدَّس الهنود في أحد الأحياء القديمة، أخذوه بأكمله، واحترمت الجنسيَّات الأخرى رغبتهم فلم يسعوا لمشاركتهم، واحتلَّ الباكستانيُّون حيًّا آخر بجواره، والعرب والآخرون توزَّعوا في أكثر من حي. ورغم العداء التقليدي بين الهند وباكستان كانوا يختلطون ويرتادون معًا أماكن السهر في الحيَّين، وحين تعلو نبرة التهديد بين البلدين، وتتحفَّز قوات كل منهما على الحدود، يأخذ كل من الحيَّين جانبًا، ويمشي في حاله، لا سلام ولا وكلام، وتتوقَّف زيارات العائلات من الجانبين.

ظلَّت الأحياء القديمة على حالها، يفصلها عن الجانب الحديث من الإمارة مساحات فضاء واسعة مكسوَّة بالحشائش الخضراء.

البيوت في الأحياء تكاد تتلاصق، من دور أو دورين. جدرانها من الطين وأسقفها من الخشب، صمدت ببنائها البسيط سنوات وسنوات، واستطاعت مع نشأتها أن تجمع سكان الخيام المتناثرة بأنحاء الصحراء.

ومع التحديث جرت تغيُّرات، تمَّ إمدادها بمواسير مياه الشرب وأدوات صحيَّة من أحدث طراز، بانيو وأحواض غسيل بخلاّطات، وسخَّانات، وغطيت أرض البيوت بالسيراميك وخشب الباركيه، وزوّدت الحجرات بأجهزة التكيُّف والمراوح، كما مُدَّت الأحياء بشبكة صرف صحي بدلاً من قنوات الصرف

الصحي المكشوفة التي كانت تشقّ طريقها في الحواري والشوارع وتتدفَّق بها الفضلات بروائحها أمام الأعين لتصبّ بعيداً في فجوات عميقة بالصحراء، حيث امتدت صفوف متناسقة من فجوات أغلقت فوهاتها بالردم بعد الامتلاء. كان السكان يكتفون بتغطية القنوات بألواح من الصاج أو الخشب أو ما يكون في متناول أيديهم من أكياس خيش قديمة، رغم ذلك تلاحقهم الرائحة، تخف قليلاً بدخولهم البيوت وإغلاق الأبواب.

ويقال إنَّه جرى نقاش في الإمارة لإزالة الأحياء القديمة بعد ظهور البترول وامتداد البناء الحديث، وكان هناك من تصدُّوا لذلك باعتبارها موطن الأجداد ومرتع الصبا يشتاق الكثيرون إلى رؤيتها من حين لآخر. واستقرَّ الرأي على بقائها مع الاحتفاظ ببعض العلامات الدَّالة على الزمن القديم، وأن يُنظر في إزالتها بعد جيل أو جيلين. لذلك بقيت الفوانيس القديمة معلَّقة بنواصي الشوارع، كما بقيت أشجار النخيل بباحات البيوت، وأبراج الحمام بشكلها الهرمي فوق الأسطح، والنوافذ الصغيرة المستديرة بأعلى الجدران الشبيهة بالكوى.

اتَّخذ المستخدمون من الأحياء القديمة موطنًا لهم لرخص الإيجار ولأنَّ ظروف المكان تسمح لهم بأن يعيشوا في ضجتهم المعتادة وبراحتهم.

* * *

يحلو السهر في الأحياء القديمة، المقاهي مفتوحة لوقت متأخِّر، وأصوات غناء هنا وهناك، وضحكات عالية، والطعام أشكال وألوان، تفوح روائحه في الجوّ وعربات الشواء الزجاجيَّة على النواصي أمامها مقاعد ومناضد.

كان البعض من أهل الإمارة يأتون بزوّارهم من الأجانب في عربات فارهة لقضاء السهرة، وبعد أن يأخذوا جولتهم في الأحياء ويتنقلوا بين المقاهي، يستقرُّون أمام إحدى عربات الشواء الزجاجيَّة لتناول عشائهم، أحيانًا يرفض صاحب العربة في شهامة أخذ مقابل، عادة ما يكون مصريًّا أو سوريًّا قدم حديثًا، يجفِّف يديه في فوطة على كتفه مبتسمًا ويقول لابن الإمارة:

ـ ضيوفك ضيوفنا. يكفي مجيئكم.

ويواجه بالنظرة الصارمة، ويضع إبن الإمارة النقود على المنضدة ويمضي.

البعض من المستخدمين يعملون في القصور والفيلات ويعيشون بها، كنت واحداً منهم، لي وضع يتميَّز قليلاً، فأنا السائق الخاص للشيخ صاحب القصر، رغم أنَّه كثيرًا ما يفضِّل أن يسوق السيارة بنفسه. كان في الأربعين من عمره ندعوه نحن المستخدمين «أبو عامر»، أصحابه أيضًا. لديه أربعة مستودعات لبيع قطع غيار السيارات والأجهزة الكهربائيَّة بالجملة (استيراد)، ويصدّرها بعد تغطية احتياجات الإمارة إلى بلدان مختلفة كانت تشكو من قلة العملة الصعبة، وطرح أبو عامر حلاً للمشكلة بأن يصير السداد ببضائع محليَّة حدَّد بنفسه أنواعها، ملابس قطنيَّة، مفروشات وقطع أثاث مزخرفة بنقوش قديمة تشي بموطنها. وكان يعيد تصدير ما يأتيه من بضائع إلى محلاته الكبيرة في باريس وبرلين ونيويورك. وقد رأيت في محل له بباريس المنسوجات المصريَّة وملابس وأحجامًا مختلفة من السجّاد المصنوعة في كرداسة بالجيزة والعديد من قطع الأثاث أشير في عرضها بالفاترينة إلى أنَّها صنعت في دمياط، بخلاف المشغولات الفضيَّة من أوانٍ وسلاسل للزينة وغوايش. وكان سعرها المعلن عشرة أضعاف سعرها في مصر، وأثار دهشتي ما رأيته يومًا من أقفاص جريد صغيرة الحجم معروضة بالفاترينة، كانت نساء باريس تتهافت على شرائها، رأيتهن يخرجن من المحل وبأيديهن الأقفاص.

سعر الواحد منها عشرة فرنكات وقيمتها في بلدي ما يوازي ربع فرنك.

كثيراً ما كنت ألمح «أبو عامر» يسير في حديقة القصر والمحمول على أذنه مصدراً أوامره باللغة الإنجليزيَّة التي أجيدها، وكان إلمامي بها أحد شروط تعاقدي للعمل. يفضِّل عادةً الكلام في أمور الشغل بعيداً عن أفراد أسرته، وكانوا يمتعضون حين يسهو ويقطع الحديث الدائر في قعدتهم مستخدمًا المحمول ليناقش أمراً طرأ له يخصّ العمل.

بالقصر خمس فتيات باكستانيَّات لنظافة الحجرات وإعداد الطعام، يُقمن في ملحق من ثلاث حجرات وصالة، وكنت أقيم في ملحق بالجانب الآخر بجوار الجراج مع ثلاثة فلبينيين، لكلّ منَّا حجرته، إثنان منهم تسند إليهما أعمال كثيرة غير محدَّدة، نظافة الحديقة وتشذيب الأشجار، غسل حوض السباحة، مشاوير هنا وهناك، أراهما في الصباح وقت الفطور، ثم في الليل حين يعودان للنوم، الثالث يعتني بسيارات السيدة وابنتيها وكانتا في سنّ الزواج، هنَّ يفضِّلن القيادة بأنفسهن، رغم ذلك يكون مستعدًّا لأن يقود سيارة أيّ منهنّ حين يطلب منه ذلك، بالإضافة إلى توصيل عامر إلى المكان الذي يقصده ويعود ليأتي به.

لا أفهم غير القليل من حديث الفلبينيين. هم أيضًا كلامهم خليط من الإنجليزيَّة والعربيَّة، وحين لا يسعفهم الكلام يستعينون بالإشارات والإيماءات، ويبدو شكلهم لحظتها مضحكًا وهم يعافرون بحثًا عن كلمة. كثير من المأمأة وكثير من التقلُّصات.

أعتني بسيارتي «أبو عامر» الجيب والصالون، وأقود حين يطلب ذلك. ثم صدر قرار أم عامر بأن أرافقه حتى لو كان يسوق بنفسه بعد أن تاه أكثر من مرة بالسيارة في شوارع الإمارة وتعدَّدت مخالفاته.

يجلسني بجواره. من عادته أن يفكِّر وهو يقود السيارة بصوت مسموع. يتكلَّم عن صفقات تأخرَ موعدها، ويحسب ما يكلِّفه ذلك. يحسبه مرة أخرى:

ـ وغرامة التأخير؟ على رأسي غرامة التأخير. وفيم تفيدني؟ بعد أن ترتبط بمواعيد مع زبائن. هه؟ ويسألونك يومًا بعد يوم. وأنت تماطل وتؤجل وتؤجل، كلام فارغ. هه. كلام فارغ؟

يرمقني خطفًا. عيناي على الطريق، أحاذر من التعليق على ما يقول، لابدّ أن يكون سؤاله موجَّهًا لي في صراحة كافية حتى أردّ عليه، وحتى حين يقول ما يثير الضحك يظلّ وجهي صامتًا لا يفصح عن شئ حتى يلكزني بكوعه فابتسم قليلاً.

يصمت متنهِّداً. ثم يعود لتفكيره. زوجته والأولاد يرغبون في السفر إلى روما لشراء ملابس، الوقت غير مناسب أبداً. ماذا لو انتظروا أسبوعين، ربما يستطيع أن يرافقهم، إنما....

لا تقتصر مرافقتي له على مشاويره داخل الإمارة، فمرات يأخذني معه في سفره للخارج. خاصة باريس. ويكون عملي حراسته.

سفريّة باريس لراحته ومتعته، لا يجري فيها أيّ صفقات ولا يتحدَّث في عمل، له شقة في الشانزليزيه. أسبوعان هناك غير الأيام الطارئة. يستأجر سيارة بسائقها باليوم، رغم ذلك لا يستغني عنِّي، يرتاد الملاهي الليليَّة، وأماكن للرقص والتعري. حكى لي عن اعتداءات تعرَّض لها البعض خاصة العرب في هذه الأماكن، سلبوا ما معهم من أموال وجوازات سفر. يعطيني جواز سفره لأحتفظ به مع قدر من المال للطوارئ. أحمل في جيبي مطواة حين أرافقه. لم يحدث أن استخدمتها غير مرة واحدة. كان أبو عامر خارجاً من ملهى ليليّ يترنَّح خفيفاً مع أنَّه لا يشرب. ربما كان ما رآه شديد الإثارة، تلفتَ باحثاً عن السيارة المؤجرة وجاء إليها، السائق بداخلها. وكنت خرجت منها لدى رؤيتي «أبو عامر» واستندت إليها بكتفي. ظهر ثلاثة من حيث لا أدري. قصدوا «أبو عامر» الذي توقف ونظر حوله. لمحت يد

واحد منهم. لمع بها شيء حين حرّكها أمامه، ربما قبضة حديديَّة، اندفعت قبل أن يصلوا إليه ووقفت أمامه. فتحت سلاح مطواتي. اندفعت اليد بالقبضة الحديديَّة نحو وجهي. ضربتها بالمطواة. صيحة وتراجع، وانحنى صاحبها مبتعداً. الآخران يدوران حولنا، واندفعت قدم إلى أسفل بطني، أصابت مطواتي ساقها. تأوَّه صاحبها منحنيًّا، تراجع الثالث وظلّ واقفًا. انسحبت وأبو عامر نحو التاكسي، وكان سائقه يقف مائلاً بكتفه على السيارة.

سألنا بالإنجليزيَّة إن كان أصابنا شيء؟

ورد أبو عامر في غضب: لم نُصب. على الأقل كان يمكنك أن تطلق النفير.

وقال السائق بعد أن استقرَّ خلف المقود:

ـ لا أستطيع. سيترصدونني بعد ذلك. وربما أبلغوا غيرهم. كانوا سيكتفون بعشرين فرنكًا تعطيها لهم. كل ما يريدونه قليل من الشراب. قليل من الشمّ.

ـ تعرفهم طبعًا؟

ـ لا أعرف أحداً.

يتغيَّر حال أبو عامر تمامًا في باريس. يصبح غندورًا. يخلع الجلباب ويلبس البدلة وكرافته صاخبة الألوان ومنديلاً مثلها في جيب السترة العلوي. وعطره فوَّاح وشعر رأسه ـ بعد الكوافير ـ في نكشة محبَّبة يلمع خفيفًا.

يضطجع في مقعد على رصيف المقهى ساعة الصباح، يتناول فطوره وعيناه هنا وهناك، يجلسني بجواره لحين مجيء أصحابه فأتَّخذ لنفسي منضدة غير بعيدة.

له صديقة تأتي لتقيم في الشقة، فتاة في العشرين تلبس الجيب القصيرة وبلوزة بحمّالتين تكشف عن كتفيها وجانب من صدرها. لا أمكث في الشقة أكثر من دقائق، أضع فيها ما أحمله بالمطبخ وأغادر إلى حجرتي في الفندق الصغير وأنتظر فيها.

رأيتها مرّة حين فتحت الباب. كان وجهها شديد الشحوب، وحول عينيها هالتان داكنتان، ويدها تلمُّ شعرها المبعثر. كانت شبه عارية، رمقتني لحظات بعد فتح الباب، وبدا أنَّها عرفتني أخيرًا. تركتني واختفت في الحجرة.

المرّة الأخيرة التي رأيتها فيها، كانت أمضت ما يقرب من ثلاث سنوات مع «أبو عامر». بدت أكثر شحوبًا وصفرة خفيفة زحفت على خدَّيها. مضت دون كلمة بعد فتح الباب، وقفتْ

في الصالة خلف زجاج النافذة المغلق تنظر إلى الخارج. كانت تلبس أحد قمصان «أبو عامر». وقد عقدت طرفيه فوق بطنها. سروالها الصغير غير محكم على مؤخرتها، التفَّ حول نفسه من جانب كأنما لبسته دون اهتمام، بدا ردفها عاريًا. وضعتُ ما أحمله على أرفف المطبخ وداخل الثلاّجة وخرجتُ.

وحلَّت أخرى مكانها. تشبهها كثيراً كما كانت قبل الأعوام الثلاثة، نفس العود الغلماني والشعر الكستنائي الكثيف والضحكة المشرقة، والخطوة الخفيفة وكأنَّها عصفور ينطّ ويوشك أن يحلّق. وكانت كسابقتها تتعلق بكتف «أبو عامر» حين تكلّمه وتلتصق به بشدّة. لا تبالي بزجره أو تملُّصه منها.

* * *

الأيام هادئة بالإمارة. سهرات أمام التلفزيون. زيارات عائليَّة. دعوات عشاء. احتفال بأعياد الميلاد. وفي الصيف يغادر الكثيرون من أهل الإمارة إلى شواطئ أوروبا. وجاء تأهيل فريق كرة القدم لكأس العالم أشبه بالانفجار. خرج الجميع ومعهم المستخدمون إلى الشوارع صاخبين يلوِّحون بعلم الإمارة وصور اللاعبين. صياح مكبِّرات الصوت، وأبواق السيَّارات، والبعض يحمل البعض على الأكتاف. سنوات وهم يحاولون مع فريق الكرة. تغيَّر المدربون أكثر من مرّة، حتى جاء المدرب الأخير وكان من أسبانيا. وحقَّق الفريق معه انتصارات متلاحقة في مواجهة الفرق الزائرة، وبعدها مع فرق البلاد التي ضمّتها المجموعة في تقسيمات تصفية كأس العالم.

عاشت الإمارة أيامًا طويلة من البهجة العارمة، وأصدر الأمير مرسومًا يلزم كافة الجهات الحكوميَّة ـ ومناشدة غير الحكوميَّة ـ بصرف راتب شهر منحة لكافة المستخدمين. وكنَّا من غير المنحة فرحين بما حققه الفريق.

اقترب موعد مباريات كأس العالم وكانت ستجري في فرنسا. وأخذت مع الفلبينيين الثلاثة نجهز ركنًا في الجراج لمشاهدتها. اشترينا «شلت» نسترخي فوقها على الأرض واعددنا خزينًا من علب المثلّجات وكمّيات من التسالي والفحم والمعسّل. وكان الثلاثة قد تعلَّموا تدخين الجوزة من العرب المقيمين بالأحياء القديمة وذلك خلال زيارتهم لمعارفهم هناك. ويبدو أنَّ تجهيزنا للقعدة بلغ «أبو عامر» فجاء ذات صباح إلى الجراج وألقى نظرة عليها. وابتسم وخرج. وصرف لنا تلفزيونًا بحجم كبير بدلاً من الصغير الموجود عندنا، وعددًا آخر من الشلت السميكة بمساندها ومنضدتين.

عُلِّقت شاشات كبيرة لإذاعة المباريات بالميادين والحدائق والمحطات وبجوارها صور اللاعبين يتوسَّطهم المدرب. وآية قرآنيَّة «إن ينصركم اللَّه فلا غالب لكم» صدق اللَّه العظيم.

اشتدّ الحماس مع اقتراب موعد المباريات، وصدر مرسوم الأمير بسفر أهل الإمارة إلى فرنسا لتشجيع الفريق على أن تتحمَّل الموازنة العامّة كافة التكاليف، وعلى المتواجدين خارج الإمارة أن يتوجَّهوا إلى فرنسا ليكونوا في استقبال الفريق، وأن يعد ذلك بمثابة واجب وطني له الأولوية.

أُعدَّت الكشوف بمقرّ الرئاسة بأسماء أهل الإمارة والفنادق التي حُجزت لهم بفرنسا وأرقام الغرف وساعة سفر كل منهم.

وكم ألفًا يبلغ عددهم؟ ثلاثون؟ خلال ستة أيام كانت أسراب الطائرات تأتي تباعًا وتغادر. اليوم السادس موعد سفر «أبو عامر» والأسرة. وقفت بالسيارة الجيب أمام سلّم القصر الداخلي في انتظارهم. لم يلق بتوجيهات أو تعليمات. ليس في حاجة لذلك. كل من المستخدمين أدرى بعمله. كثيراً ما يستدعيني بعد أن يفشل في العثور على إحدى قنوات التلفزيون، وكان مشتركًا في ثلاثة أنظمة، وينسى طريقة عمل كل منها رغم أنَّني أوضحتها له أكثر من مرّة. من عادته أن يترك إدارة متاجره للمستخدمين. لا يتدخل إلاَّ في ظروف طارئة حين يقتضي عرض الأمر عليه. ويومًا ثارت مشكلة في واحدة منها واستدعوه. كنت معه. وقفت قرب باب مكتب الإدارة لأعود به. بعد أن استمع لما سرده المدير، وكان سوريًّا له سنوات طويلة بالمتجر أعطى «أبو عامر» توجيهاته خلافًا لما توقَّعه المدير.

الزبون من أثرياء الإمارة كان على مقعده ينتظر. تأهَّب للانصراف راضيًا. تردَّد المدير السوري قليلاً ونظره يتنقل بينهما وقال:

ـ إذا كان قرارك له أسباب خاصّة فهذا شيء آخر. وسأدوِّن ذلك في الأوراق حتى لا يسري على أيّ عقود أخرى.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنَّ قرارك يخالف أحكام العقد المبرم مع سعادته.

ـ كيف؟

ـ لم يُنصّ في العقد على مراعاة ما يطرأ من تغيُّرات في الأسعار وبالتّالي فالسعر المتعاقد عليه ملزم للطرفين. ولو حدث العكس كنَّا سنتحمَّل نحن الخسارة.

أطرق أبو عامر قليلاً ثم قال:

ـ إفعل ما تراه. أنت أدرى.

والتفت إلى الزبون ضاحكًا.

ـ كما ترى. الأمر ليس بيدي.

ـ يدك؟ سيكلِّفني ذلك.

ـ يكلِّفك ما يكلِّفك يا رجل. الحقّ حقّ.

وأخذه من ذراعه وخرجا.

* * *

انتظرت بالمطار حتى حلَّقت الطائرات تباعًا بالفوج الأخير وكان يضم «أبو عامر» والأسرة، وعدت.

كان الطريق خاليًا. ولدى اقترابي من المدينة خطر لي ما جعلني أضحك، فالأمور كلّها الآن في يد المستخدمين. لو أنَّهم أعلنوا استيلاءهم على الإمارة، وأغلقوا المطار والموانئ، وأذاعوا خطابًا ملتهبًا يطالب دول العالم بالاعتراف بالنظام الجديد مستندين إلى أنَّ كل ما تمّ بناؤه في الإمارة كان بجهدهم وعرقهم، ربما حصلوا على اعتراف بعض الدول. وتذكَّرت واقعة تشبه قليلاً ما تخيَّلته جرت في إمارة مجاورة. الأمير الشيخ سافر للعلاج في الخارج. ابنه - ولي العهد - بلغ الخمسين، انتظر طويلاً على ما يبدو أن يأتيه الحكم، وأبوه في صحة جيِّدة، مازال يمتطي حصانه الأبيض ويرمح به في رياضته الصباحيَّة. وأحيانًا يجتمع، في سهرة بحديقة القصر، أبناؤه وأصدقاؤه المقرّبون، ووسط المرح الصاخب يأتي الخدم حاملين عصًا غليظة من

الخشب ثُبت طرفاها بقائمتين ثقيلتين ويتهادى الأمير العجوز نحوها مشمرًا كمّه، ويرفع ذراعه ويهوي بحدّ كفّه فيقصمها. وتنطلق آهة الإعجاب من الجميع، هو وحده ـ ولي العهد ـ يرمق ما يجري مداريًا عبوسه بنوبة سعال مفاجئة.

سفر الأمير العجوز كان للاطمئنان. مجرد بعض التحليلات، فهو لا يشكو من شيء. كان ولي العهد في وداعه بالمطار مع آخرين من كبار المسؤولين، وقبّله في خديه وربت الأمير العجوز على كتفه الضخمة. بعد يومين بالتمام من سفره، وكان قد استقرّ في جناحه بالمستشفى، استولى الأمير ولي العهد على الحكم. ونودي به أميرًا للبلاد. الأمير العجوز سمع بالخبر وكان راقدًا في سريره، قفز مكفهرًا، واندفع من جناحه بجلباب المستشفى القصير ساحبًا وراءه أنابيب التحاليل المثبتة بذراعيه، والممرضات يهرولن خلفه لفكّها منه. كان يزمجر:

ـ أسافر الآن.

أحاط به البعض من حرسه الخاص المقيمين معه. توقف محدّقًا في وجوههم.

ـ وأنتم؟

وقفوا خاشعين لا يفهمون سؤاله. استدار عائدًا:

ـ جهّزوا انتقالي للفندق. نسافر اللّيلة.

في اليوم نفسه أُعلن في مؤتمر صحفي أذيع في كلّ المحطّات الإذاعيَّة والتلفزيونيَّة أنَّه في طريقه للبلاد ليؤدِّب الولد العاق. وسيضربه بيده علنًا أمام الجميع.

وردّ الأمير الشاب في حديث أذيع هو الآخر:

ـ لا ترجع يا والدي. رجاءً لا ترجع. لن أترك الحكم. وستظلّ دائمًا أبي. معزَّزًا مكرَّمًا. إنما رجاءً. لا ترجع.

كنت أشاهد الحديث. رعشة خفيفة بوجهه السمين، ودمعة تتكوَّن بطرف إحدى عينيه، امتلأت وتألقت في أضواء آلات التصوير، وحين بدت على وشك السقوط مسحها بإبهامه.

لجأ الأمير الشيخ إلى بعض البلاد الصديقة لمساعدته على العودة للحكم، ثم هدأت فورة غضبه، وربما لم تبدِ البلاد الصديقة حماسًا لمساعدته. غير أنَّها رحَّبت بإقامته فيها.

* * *

لم يتغيَّر شيء. شوارع المدينة في حركاتها المعتادة. ناس تذهب وتأتي. تدخل المحلات وتخرج حاملة أكياس المشتريات، ونساء باكستانيَّات وهنود يدفعن عربات أطفالهن في طريقهن للحدائق العامّة، وعربات النظافة جاءت مبكِّرًا على غير العادة. تتحرَّك في بطء على جانبي الشوارع، والملاهي أضاءت أنوارها قبل اللّيل بكثير. الأرجوحة الدوَّارة كلَّما رأيتها تمنيت أن أركبها. صناديقها المرتفعة تتأرجح في شدة وتهوي. صياح ركابها خليط من اللّغات.

دخلت بالجيب إلى القصر. أوقفتها أمام الجراج، بحثت عن الفلبينيين. لم أجدهما، ولمحت الباكستانيَّات الخمس يقفن بمدخل حديقة القصر ينظرن ناحيتي ويبتسمن في تكتم. سألتهن بالإنجليزيَّة عن الفلبينيين. أشرن إلى قاعة الاستحمام وكانت في عمق الحديقة وأسرعن إلى حجراتهن.

يشغل حمّام السباحة الملوَّن منتصف القاعة، وعلى جانبيه مقاعد ومناضد. باب مغلق يؤدي إلى دورات المياه، وآخر يؤدي لسلالم تصعد إلى داخل القصر.

الفلبينيون بالمايوهات يسبحون في زيطة، ورذاذ المياه يتطاير حولهم. يشيرون لي أن انضمّ إليهم، وأضحك. ملابسهم على المقاعد، وصينية فوق منضدة بها ترامس مشروبات ساخنة وأكواب وطبق من الفطائر. أعددت لنفسي كوب شاي وجلست في انتظارهم.

بعد خروجنا جاءت واحدة من الباكستانيَّات. حدثتني قائلة:

ـ ماذا لو تناولنا العشاء معًا في الحديقة؟

الأخريات جئن ووقفن بجوارها. يبتسمن في مودّة. الفلبينيون على ما يبدو يعرفون ما تقوله، وربما تناقشوا في الأمر معًا، ورأوا بصفتي عربيًّا أنَّني المؤهل لإصدار الأوامر في غيبة أهل القصر. ما أن خطر لي ذلك حتى تحاشيته من البداية. قلت:

ـ مثلي مثلكم. كل واحدة أو واحد يفعل ما يراه. فقط إذا ما أراد أيّ فرد منَّا الخروج يترك عنوان المكان الذي يقصده، حتى لو رغب في قضاء الليلة بالخارج. فإذا طال غيابه لسبب ما ذهب أحدنا للبحث عنه.

تبادلوا النظرات والإشارات، وفهمت أنَّهم يوافقون على ما قلت. وسألتني الباكستانيَّة عن المدة التي سيغيبها أهل الإمارة؟

ـ ما يقرب من شهر. سنعرف من متابعة المباريات.

تعاونَّا في إعداد المائدة وسط الحديقة. مفرش مزيّن بالنقوش والدانتيل بأطرافه امتدَّ على المنضدة الكبيرة، وأطباق الصيني وأكواب الكريستال. وطبق كبير في المنتصف به سمك مشوي وآخر سمك مقلي، ومنضدة صغيرة مجاورة فوقها علب المشروبات المثلّجة.

جلست والفلبينيون في جانب، والباكستانيَّات في الجانب الآخر. كنَّ على خلاف العادة عاريات الرأس، وشعورهن في ضفائر على ظهورهن.

قالت واحدة منهن: لا أحد يعرف السمك مثلي. ذهبت بنفسي واشتريته.وأنا من شوتْه وقلتْه أيضًا.

وقالت أخرى: وأنا طبخت الأرز وساعدتك في القلي.

ـ لم تساعديني

ـ وضعت الزيت في المقلاة وضحكن

كان الطعام شهيًّا. لم أذق مثله منذ جئت للإمارة. وشربنا المثلَّجات مضطجعين على كراسي بحر بين أشجار الورد، وثرثرنا بالإنجليزيَّة والإشارات، بجوارنا البرّاد الكهربائي، أعددنا الشاي والنسكافيه والقهوة. واستغرقنا طويلاً في الصمت، نتأمَّل ما حولنا وكأنَّنا لم نره من قبل.

وقال فلبيني فجأة متنهداً:

ـ الحياة حلوة.

قال كلمة حلوة بإشارة من يده، قبّل أصابعها ثم طوَّحها في الهواء.

وقال آخر: هذه حكمة مغفّل.

وردَّ الأول: تمامًا ما تقول.

وفتحنا في الكلام. ذهب بنا إلى عوائلنا في البلاد البعيدة، وفترات الصبا.

وقالت واحدة من الباكستانيَّات إنَّها تنفق على حارة كاملة في بلدها. كلّهم من أقاربها. سبع عائلات. واتفقنا على أن تمسك واحدة منهن بالمصروف أثناء غياب أصحاب القصر، فما نتناوله من أطعمة ومشروبات غير الموجودة بخزين القصر سنشتريها من الخارج ونتحمَّل ثمنها.

وقالت الباكستانيَّة التي تنفق على حارة بأكملها إنَّ «أم عامر» تركت معها مبلغًا للنفقات، وبعد نفاده نشتري على حسابنا.

وتساءل واحد من الفلبينيين أين سنمضي السهرة؟ ولا تقولوا التلفزيون. نراه كل ليلة. فكِّروا في حاجة مرحة حتى أموت من الضحك.

وقال فلبيني آخر:

ـ الملاهي. فهو لم يرها منذ مجيئه.

ووافقه الآخران مهللين.

وسأل الفلبيني الذي اقترح الملاهي إن كنَّا سنصحبهم؟

وحين ووجه بصمتنا، وكنت لحظتها أقلّب الفكرة في رأسي قال إنَّهم عمومًا سيذهبون بعد الملاهي لزيارة معارف لهم في الأحياء القديمة.

شربنا دورًا آخر من القهوة.

كانت ظلال الغروب تزحف على مهل في الحديقة. تسلَّقت سيقان الأشجار، وحين عدت بنظري إليها رأيتها تلمس الفروع.

مالت واحدة من الباكستانيَّات قليلاً إلى الأمام. وقالت إنَّها تريد أن تخبرنا بشيء يظل سرًّا بيننا.

سكتت لحظة، وتبادلت النظر مع الأخريات وقالت:

ـ واحدة منَّا. ريشيم. متزوِّجة.

سكتت مرّة أخرى، أشارت بيدها نحو الفتيات الأربع، وخفضت ريشيم بصرها وابتسمت خفيفًا.

ـ أخفت زواجها لأنَّ أم عامر أرادتنا غير متزوجات. وكان الأمر سهلاً. فزوجها ظلَّ في باكستان. غير أنَّه من تسعة شهور حصل على عقد عمل بالإمارة. يعمل في رصف الطرق ويقيم بالأحياء القديمة. لم يحاول أن يتَّصل بها. هي أيضًا لم تحاول. فلو عرفت أم عامر ستنهي عقدها. مجرَّد خطابات يتبادلانها من وقت لآخر. هو يقيم في حجرة مع اثنين آخرين. وكتب لها من شهور أن تلقاه في «السوبر ماركت» المجاور لنا. هو يعرف القصر. ومشى أمامه مرّات. لم يحاول التوقُّف أو النظر. وذهبت ريشيم إلى السوبر ماركت بحجَّة شراء لبان وأظرف خطابات. والتقته هناك. لم يتبادلا كلامًا ولا اقتربت منه. خشيت الموجودين في السوبر ماركت. فربما كان بينهم من يعرف أم عامر ويخبرها بتبادلهما الكلام مع غريب وهو أمر لا تسمح به أم عامر

أبدًا. وتنبِّهنا إليه من وقت لآخر. تخشى أن يتسلَّل غرباء عن طريقنا إلى داخل القصر والكلّ نائم. لا أعرف كيف يخطر لها ذلك.

سكتت مطرقة. الأخريات أطرقن أيضًا. وحدها ريشيم كانت تنظر جانبًا والابتسامة الخفيفة على وجهها. وعادت الباكستانيَّة للكلام:

ـ وأمسكوا به مرّة. هو يعرف القصر. ويعرف مكان غرفتها. أخبرته به. غلطتها أنَّها أخبرته بكلّ هذه التفاصيل. ويقول لها عن اليوم والساعة التي سيمرّ فيها. وتقف على مقعد في حجرة واحدة منَّا التي تطلّ على الشارع خلف القصر. هو يذهب ويأتي. وتراه وهو لا يراها. ولا عرف بوجودها وطلب منها بعد ذلك أن تشير إليه. مجرد أن يعرف مكانها. وحذرناها. واستمعت لنا. يذهب ويأتي. لفت الأنظار إليه. أمسكوا به وساقوه إلى المخفر. الشاويش في المخفر هندي. كلّهم في المخافر كما تعرفون هنود. بموجب اتفاقيَّة أمنيَّة مع الهند. وحتى يستطيعوا الكلام مع الجنسيَّات المختلفة وضعوا في كل مخفر واحدًا من باكستان وواحدًا من الفلبين وآخر من العرب. تعاقدوا معهم لأعمال الخدمة والنظافة بالمخفر، والهنود وحدهم يلقون الأوامر. والرئيس ضابط من الإمارة. الشاويش الهندي

عرف زوجها. يتردَّد من حين لآخر على الأحياء القديمة للتسلية وزيارة أقارب له. ورآه في مقهى هناك وتذكّره. مال عليه وأخبره أن يقول إنَّه كان يبحث عنه وكل مرة يتوه، وهو لا يعرف لغة أخرى حتى يسأل. الضابط انفجر في الضحك وقال:

ـ باكستاني يبحث عن هندي. محبة. هه؟

الضابط ربما لم يطمئن لما يُقال له. أرسله إلى المخفر في الأحياء القديمة حيث يقيم للتحري والتصرّف. وهناك أفرجوا عنه. والشاويش الهندي أخبره ألا يبتعد عن الأحياء القديمة مرّة أخرى، وأن يحترس لأنَّهم وضعوه مؤقتًا تحت المراقبة. لم يأت بعدها أو حتى يرسل خطابًا. هو لا يزال هناك. أخبرتنا باكستانيَّة كانت في زيارة بالأحياء القديمة وأرسلتْ كما طلبنا منها تسأل عنه. وجاءت منه برسالة شفويّة أنَّه بخير. وسيسافر في إجازة أسبوعين إلى بلده بعد شهر. وريشيم لا تستطيع السفر. أم عامر لا توافق على إجازات لنا. حين طلبتُ من شهر أجازة لنفسي قالت.

ـ وما يعجبك في بلدك؟ كل ما تريدينه متوفر هنا.

ـ أشوف أهلي يا أم عامر.

ـ ونحن مثل أهلك. لا أستطيع أن أستغني عن أي واحدة منكن هذه الأيام. أصبري. كما ترين العمل كثير. وطول النهار

كلكنَّ مشغولات. أفكِّر في التعاقد مع اثنتين أخريين. أطلبي من أهلك أن يرسلوا لك خطابات. صور. شريط كاسيت. تسمعين أصواتهم. واصبري. شهران. ثلاثة. ربك يسهِّل.

أم عامر وأعرفها. حين تتعوَّد على وضع يصعب عليها أن تغيّر شيئًا فيه.

كنت أثناء حكيها أتساءل عمَّا جعلها تحكي. وانتظرت.

الفلبيني بجواري يستوعب ببطء ما تقوله، ويطلب منها أحيانًا إعادة بعض الفقرات.

استرخت في مقعدها، وعيوننا توجَّهت إلى ريشيم، اضطربت أمام نظراتنا وأحنت رأسها، أصابعها تعبث بضفيرة شعرها والابتسامة الخفيفة لا تفارق وجهها.

وسألتنا الباكستانيَّة، ووجهت سؤالها للفلبيني الذي اقترح الذهاب للملاهي إن كان صحيحًا أنَّه سيذهب للأحياء القديمة بعد الملاهي؟

ـ آه سأذهب.

ـ كنت أخذت خطابًا له وتأتي بالردّ إن أمكن. ونعطيك العنوان؟

الفلبيني القاعد بجواري قال منفعلاً:

- خطاب. وردَّ على الخطاب. هذا الكلام. سأذهب وأحضره بنفسي.

- من؟

- زوجها. ألم تقولي إِنَّه زوجها. أعطني العنوان.

- تحضره هنا؟ في القصر؟

- ما يمنع؟

عيناها على وجوهنا. قالت:

- لا أعرف. نفكر.

- وفيم نفكِّر. الأمر بسيط. زوجها ويأتي إِليها. أعطني العنوان.

مرة أخرى تتجمَّع النظرات في اتجاهي تنتظر أن أصدر أمرًا. قلت:

- مثلي مثلكم.

وقال الفلبيني بجواري: سأذهب بالسيارة وآتي به. يقيم معها إِلى أن يعودوا من السفر.

وقالت الباكستانيَّة التي تولت الكلام: وأين يقيم؟

وقال الفلبيني: حجرة عامر.

وقال آخر: هي الأنسب.

تبادلوا النظرات، والفتيات تجمعن. يتهامسن ، ريشيم تقف جانبًا خافضة بصرها.

أعطين الفلبيني العنوان، وواحدة سحبت ريشيم واتجهتا إلى حجرتيهما وتبعتهما الأخريات.

الفلبيني الذي كان بجواري وبيده العنوان اتَّجه للسيارة ولحق به آخر قائلاً:

ـ خذني معك.

وقلت: أوقفا السيارة بعيداً عن مسكنه.

وقال واحد منهما: ولم نوقفها بعيداً، من هناك يشي بنا؟

تابعتهما ببصري حتى غادرت السيارة القصر.

* * *

جلست والفلبيني أمام الجراج. أضواء كثيرة غمرت الممرات بمدخل الحديقة وامتدّت إلى سلّم القصر، ورائحة بخور أخذت تنتشر وتحلِّق. نتابع بنظراتنا حلقات دخانه الرقيق وهي تتلاشى، أصوات غنائهن، وضحكات صغيرة. و صمت. كنّ على ما يبدو يزيّنها.

وخرجن أخيراً. هي في المقدمة، أشبه بعروس، لمعة وجهها في الأضواء. تلبس فستاناً طويلاً، وشالاً من الدنتيلا على كتفيها، وشعرها مرفوع به زهور بيضاء. صعدن درجتي السلّم، وتوقفن على البسطة، وسرت ترنيمة بدت كدعاء، ودخلت ريشيم القصر، وبقي الأربعة على البسطة، ثم استدرن عائدات إلى حجراتهن.

عاد الفلبينيان. أوقفا السيَّارة أمام سلّم القصر، ورافق واحد منهما الباكستانيّ الذي كان يسير متعثِّراً بجانبه وما يشبه الجلباب أو السترة ملقاة على كتفه. وأمام الباب خلع الشبشب

غير أنَّ الفلبينيّ أشار إليه أن يلبسه. وخرج بعد دقائق، كان مبتهجًا يلوِّح بيده:

ـ تقولون بالعربيَّة تمام التمام. وبالإنجليزيَّة أوكي.

وضحك وقال: والآن إلى الملاهي. تأتي معنا؟

فقلت: ربما لحقت بكم. وهو؟

و أشرت إلى القصر. وقال حائرًا:

ـ آه . هو.

أوضحت: عمله؟ عنده عمل ..

ـ آه . قلت لي.

وضحك: أخذوا راحة باكرًا. كلّهم. وتلفنوا لصاحب الشركة في الخارج. سمح لهم فرحة بالفريق. لو رأيتهم في الأحياء القديمة؟ أخرجوا كل مناضد المقاهي والكراسي إلى الشوارع والأرصفة، غناء وزيطة ورقص. واحد من بلدك يرقص بالعصا. وأرغول وطبلة.

ـ وبعد باكر؟

ـ بعد باكر يذهب بالحافلة إلى مكان تجمُّعهم وتأخذهم عربات الشركة إلى الموقع. وبعد العمل يعود إلى هنا. رتبت معه كل شيء. كنت أتيت معنا للملاهي؟

ـ عندي مشوار وألحق بكم. اسألهن ربما يردن الذهاب.

ـ آه. صحيح.

تكلَّم معهن بالمحمول، ثم قال:

ـ يفضِّلن البقاء. يعددن لهما طعامًا. وربما يحبان القعود معهن.

خرجوا.

* * *

ألقيت نظرة على الجراج، وخرجت أيضًا. أخذت دورة حول القصر. ليس خشية اللصوص، إنما للاطمئنان. هي عادة أقوم بها من وقت لآخر، وقد أفادت مرّة. حين اكتشفت شرارة كهرباء تتطاير من سلك خرج من الأنبوب الممتدّ على السور وتعرَّى جزء صغير منه. لم أسمع بسرقات وقعت بالإمارة منذ مجيئي. ربما عمليات احتيال. نصب. أما سرقات بالقصور فلم يحدث. كل بلد ولها لصوصها. وماذا يسرقون من القصور؟ النقود في البنوك. والذهب وما غلى ثمنه في خزائن يصعب فتحها أو تحطيمها، أجهزة كهربائيَّة؟ ما أرخص أسعارها هنا. ما يقلقني أنَّ الأمور اتخذت مجرى لم أتوقَّعه، ولو عرف أبو عامر سيكون موقفي أصعب من الجميع. كنت مقرَّبًا منه أكثر منهم. ولو سألني:

ـ وأنت؟ شاركتهم؟

وأقول إنَّني شاركتهم.

أحاول أن أتخيَّل وجهه عندما أقول ذلك.

صواريخ ملوَّنة تنفجر فجأة في الفضاء. تتلاحق انفجاراتها، ورذاذها يتناثر في أقواس ويتلاشى. الجميع على ما يبدو انطلقوا.

التفت على هسيس القصر المجاور. كانت تقف بالشرفة. ربما المصريَّة الدادة كما يسمُّونها. سمعت بوجودها من عامين ولم أرها. هي أيضًا عرفت بوجود مصري في قصر «أبو عامر» كما أخبرتني واحدة من الباكستانيَّات، وعرفت أيضًا بتأهبي للسفر في إجازة. أرسلت مع باكستانيَّة من عندها إلى باكستانيَّة في قصر «أبو عامر» تستأذن في إرسال بعض الأشياء إلى أسرتها في القاهرة. وافقتُ. حقيبة بها ملابس ومظروف به نقود ورسالة وعلبة قطيفة بها سلسلة وحلق من الذهب. وبخط دقيق كتبت المبلغ على المظروف.

تشير بيدها إلى باب القصر. لم أكن قررت بعد أين أمضي. استجبت لإشارتها.

فُتحت البوّابة الخارجيَّة لدى اقترابي. ممشى مكسوّ بالحصى ينتهي إلى سلّم القصر. أنوار الحديقة خافتة. تقف على بسطة السلّم. صعدتُ الدرجات الثلاث قالت:

ـ تفضل.

دخلت ودخلتُ وراءها.

الردهة واسعة. بها مقاعد كثيرة، وأضواء هادئة في الأركان. تبدو في الأربعين. تلبس روبًا بلون أرجوانيّ مفتوح الصدر. شعرها ملموم جانبًا، تتحسَّس أطرافه بأصابعها وتشير بيدها. انتبهت أخيرًا لإشارتها. مقاعد الفوتيه هناك في الظلال.

كنت ما أزال ألوم نفسي لاستجابتي لدعوتها ودخولي القصر حين قالت:

ـ لا يعجبك المكان؟

وقالت مبتسمة ورأسها يميل جانبًا:

ـ أنا أيضًا لا يعجبني. واسع زيادة عن اللازم.

تقدمتني.

شرفة خلفيَّة مغلقة بالزجاج، بها كنبة ومقعدان، تطل على جانب من الحديقة حيث النخيل القصير وأشجار ورد أكثرها بلون أحمر وأصفر، ومقاعد متناثرة.

قالت: أفضله عن أيّ مكان آخر. أقعد في نفس مكانك. وأترك فكري يشطح حتى أسمعها تناديني فأصعد إليها.

صوتها قريب منّي، ترددت في الإلتفات نحوها. قالت:

-خذ راحتك لا أحد في القصر. خرجوا كلُّهم. وفكّرت أيضًا في الخروج. وقلت أين أذهب. وظيفتي هنا القعود. اعتدت عليها. لا أعرف أحدًا خارج القصر. رأيتك من قبل وأنا بالشرفة ثلاث مرات أو أربع. وفكّرت لو أحكي معك. لا أعرف كيف ألقاك. حتى جاءت المباراة. ستحكي لي.

كانت بجواري، يكاد كتفانا أن يتلامسا، نظرت إليها متسائلاً. قالت:

-آه . أنت سافرت. ورأيت عائلتي. ولم تحك لي.

-فات ما يقرب من السنة.

-آه سنة. وكيف أكلِّمك؟ وكل ما قلته في رسالتك أنَّهما بخير. ستة أعوام لم أر زوجي ولا ابنتي. كبرتْ الآن. رأيتها؟

وقلت إنّني رأيتها.

-تشبهني؟

التفتّ لأرى مدى الشبه. فوجئت بوجهها القريب وعينيها المتألقتين. ضممت ساقي وعدت أنظر للحديقة. أتحاشى دائمًا هذه المواقف. ما سمعت به من عواقب جعلني أحرص على

الابتـعـاد. خـمـسـون جلدة علنًا، والطرد، وحـرمـان من كل المستـحـقـات سـواء رواتب مـتـأخِّـرة أو مكافأة نهـاية الخدمـة المنصوص عليها في العقد. وكم حالة سمعت بها خلال أعوامي الخـمـسـة؟ سبع حـالات لا غـيـر، وكـانت بين مـسـتـخـدمين ومـسـتـخـدمـات من العـرب. اللقـاءات تمّت في تكتم جـعـلني أتعـجّب من اكـتـشـافـهـا، وكـأنَّ هناك عـيـونًا ترصـد. ممرضـات وعاملات في مطاعم. يخرجن للشراء، وبعد أن تطوف الواحدة منهنَّ بالكثير من المحلاّت في المراكز التجاريَّة الضخـمـة تخرج وبيـدها كـيس ممتلئ، مـثلهـا مـثل أخـريات، وتركب الحـافلة إلى الأحـيـاء القـديمة، وتـدخل مـبنى بـه العـديد من السكّان. نسـاء ورجـال. تدخل وتخـرج، وهناك تلتـقي بـصـاحـبـهـا، كـيف تمَّ رصدهم؟ حيّرني ذلك وجعلني أوقن بوجود عيون. تـشـابهت الحالات السبع في أنَّهم كانوا حديثي المجيء إلى الإمارة، أربعة شهور أو أكثر قليلاً. دمهم لا يزال ساخنًا، لم يألفوا ما ألفناه. كنت بعـد خـمس سنوات أبدو وكـأنَّني أغلقت بابًا تأتي منه الريح، وربما أُغلق من نفسـه. لا شيء يثـيـرني. جسـد جـمـيل يتـمـخطر. ومـا أكـثرهـن. سيقـان مـخـروطة لامعة البـشرة تتـعرَّى أثناء الدخول إلى جوف السـيّارة، وكـأنِّي لـم أر شيـئًا. أخـفض بصري مسرعًا في خطوتي. مستخدم فلبيني، سائق لدى أسرة، وكان أيضًا حديث المجيء. أسبوعان كل ما قضاه بالإمارة، يفتح

باب السيّارة ـ كما سمعت ـ محدِّقًا إلى ساقي السيِّدة وهي ترفعهما إلى الداخل. اكتفوا بإنهاء عقده، وكان يبكي حاملاً حقيبته إلى المطار. ويقول لمن رافقه:

ـ بعد كل ما أنفقته للمجيء. لو أنَّهم فقط يخبرونني بالسبب.

السبب عرفه مرافقوه حين حكى لهم عن عمله لدى الأسرة. ولم يخبره أيّ منهم بخطئه. قالوا يعود ببراءته.

حين سمعت بالحكاية وكان فات على مجيئي ما يقرب من عامين وجدت نفسي أرقب الفلبيني من داخل الجراج حين يفتح باب السيَّارة لام عامر أو البنتين. هو أقدم منِّي في القصر بعام ونصف. يفتح الباب ويظل ممسكًا بمقبضه وعيناه تنظران إلى حذائه حتى تستريح السيّدة أو البنت في مقعدها فيغلق الباب ويجلس خلف المقود.

قلت لنفسي يومها: معهم حقّ ومن يقبل أن يرى سائقه يحدِّق إلى ساقي امرأته أو ابنته. وقلت لنفسي أيضًا يومها ومن يأمن على بيته وبه نساء وفتيات من عاملين لديه خانوا الثقة. نفس الخواطر عاودتني حين سمعت بالحالات السبع التي تمَّ ضبطها وقد جاءت في أوقات متلاحقة. ما بين الحالة والأخرى لا

يزيد عن ثلاثة أو أربعة شهور. كنت أقول لنفسي معهم حقّ، هذه المرّة فعلها مع واحدة من المستخدمات غداً يفعلها مع واحدة من أهل الإمارة. من يتعوَّد على شيء يصعب أن يكفّ عنه. وكنت أردِّد هذا القول لمن حولي، وأضيف أحياناً أنَّه باب الجحيم لو فتح، وأنَّ الأمر سهل، مجرد أن تعزم على النسيان وتجد نفسك نسيت. والجمرات المطفأة لا وهج لها ولا تلسع من يلمسها. هذه الأقوال وغيرها، وكنت أجد من يسمعني مؤكِّداً ما أقول:

ـ صحيح. ما تقوله صحيح.

ـ ناس يأتمنونك. ولم يقصِّروا معك.

بعد الشهور الأولى لم يعد الأمر يشغلني. أمضي وكأنَّ لا وجود لهنَّ، أو أراهن مثلما أرى أيّ واحد. أحياناً يخطر لي كيف كان حالي وكيف أصبحت، وأجدني لم أفقد شيئاً ذا أهميّة. مجرّد لحظات من التشنُّج، أستعيض عنها بما يأتي في الأحلام. توقظني اللّحظة، وأحسّ البلل بين ساقي. دائماً تكون امرأتي، ويطمئن بالي وأعاود النوم. لا يشغلني غير ما ينتظرني في الصباح من غسل ما ألبسه واستحمامي.

وأحياناً أيضاً أكون قاعداً أمام باب الجراج متأمِّلاً حالي بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه، وأقول لنفسي إنِّي رغم كل

شيء استطعت في هذه السنوات الخمس أن أدّخر ما يكفيني وأبني بيتًا من دورين في بلدتي. وأنتبه على صوت الباكستانيّات يذهبن ويأتين. يدخلن المطبخ ويخرجن بخطواتهن المهرولة، مشغولات بما يحملن بين أيديهن. هن مثلي، لابد وصلن إلى ما وصلت إليه.

خطر لي مرّة وأنا في قعدتي ما كان يفعله أهل بلدتي حين يرون عجلاً فلت عياره وراح يقطع الطريق على البهائم، ويرمي بثقله فوق واحدة منها يكاد يمزّقها. وأحيانًا تعميه شهوته فيندفع نحو كل ما يمشي على أربع. كانوا يخصونه أو يذبحونه. ويعود الهدوء للقطيع.

لم أسع في طلب إجازة رغم استحقاقي لها. أخشى لقاء زوجتي. أقول لنفسي ربما يأتي يوم وينصلح حالي، فأنا لا أشكو مرضًا ولا اتعب من عمل. وأسمعهم في قعداتنا بمقاهي الحيّ القديم يقولون إنَّها أحوال تتغيَّر من يوم لآخر، ومن مكان لمكان، تجد نفسك مكتملاً فوق السطح وخائبًا داخل حجرة.

وجاء يوم وفاجأني أبو عامر:

ـ لا أراك تطلب إجازة مثلهم. لك أربع سنوات. ألا تشتاق لأهلك؟

اضطربت قليلاً. صوته ودود. وعيناه تبتسمان. قلت:

ـ ما تراه يا أبو عامر.

ـ شهر كامل وتستحقه. رتِّب نفسك وأخبرني.

وما حدث كان غير ما توقَّعت. فحين وطأت قدماي مدخل البيت، ورأيت امرأتي مقبلة منتشية بمجيئي أحسست بالرغبة تفور داخلي.

تقودني الدادة خلال أروقة القصر. قالت إنَّ اسمها «زاهية» وأنَّ لها ستة أعوام هنا. لا تشكو من شيء، تتكلَّم وجسدها الممشوق يتمايل خفيفًا أمامي. كانت تحلم كثيراً بأسرتها، الآن تأتي الأحلام قليلاً. زوجها طيِّب وابن حلال، لم يقصِّر معها أبداً ولا أساء لها يومًا. هي وابنتهما كل شيء في حياته، والبنت كبرت وزادت طلباتها، ملابس وغيره. حين عجز عن الحصول على عقد عمل في الخارج،

قال: جرِّبي أنت. فرصتك أكبر.

وجاءت

طلبت الإجازة مرّة ومرّة. هنا يتعوَّدون عليك. لم أطلبها بعد ذلك.

ينحسر طرف الروب أثناء مشيها كاشفًا عن قميص نوم خفيف بلون ورديّ. أتحاشى النظر إليه، وكان يشفُّ عن ساقها الطويلة، أخذت أنظر إليها. كانت جملية، تثنيها وتفردها في خطوة رشيقة. هي أعلنت بما يكفي عن رغبتها. يقلقني ما يأتي بعد ذلك، أتبعها في وهن وقد طالت المسافة بيننا قليلاً. أفكر في عذر للانسحاب. لا تعطيني فرصة، من حجرة لأخرى، وقاعات، وصالة صغيرة للسينما، ولوحات على الجدران، تشير بيدها وتتكلّم. القصر هنا لا يختلف عمَّا عندكم. بنياهما في وقت واحد، أبو عامر وأبو سالم، كانا في شبابهما صاحبين لا يفترقان. الآن قليلاً ما يرى أحدهما الآخر. الأعمال والمشاغل. حكت لي أم سالم الكثير، تحكي وتحكي، وأنا أسمع. وظيفتي القعود. أم عامر جاءت هنا مرّتين، رأيتها في المرّتين، ست أميرة وحلوة، إنما صعبة. لم أحبها، أم سالم أيضًا لا تستريح لها، لا أعرف ماذا سيجري بينهما وهما في فندق واحد بفرنسا، كم تطول مباريات الكأس؟

قلت إنِّي لا أعرف.

ـ هنا حجرتها.

وقفت بالباب المفتوح تنتظرني، وأنا وقفت على بعد خطوتين. التفتت نحوي مبتسمة:

ـ لم ترها من قبل؟

ـ وما يجعلني أراها.

ضحكت: خفت؟ قصدي أم سالم؟

وقالت: شفت في حياتك سريراً بهذا الحجم؟

الحجرة أشبه بقاعة، وسرير ضخم يتوسَّطها. يسع أربعة أشخاص يتمدَّدون براحتهم، وستارة مسدلة على باب الشرفة، وباب موارب في جانب لمحت من فتحته طرف مرآة وحوض، وباب في الجانب الآخر مغلق. تلفزيون كبير معلَّق على الحائط في مواجهة السرير. أرفف زجاجيَّة تحته فوقها ثلاثة أجهزة «ديكودر» وفيديو، ثلاّجة صغيرة بجوار الفراش، على سطحها عدد من «الريموت كنترول» مختلفة الأشكال.

ارتكزت زاهية بركبتها على حافة الفراش ومالت فوقه لتعدّل وضع المخدّات. أرمق الجسد المنحني يتماوج خفيفاً، واستدارة ردفيها، والساق البضّة العارية، وأجدني ساكناً. تنهض من انحناءتها، الروب مفتوح، والحزام تدلَّى طرفاه على الجانبين. القميص الورديّ يزهو في ضوء الغرفة، بلا ملابس تحتيَّة، بطنها، سرتها، وحلمتا ثدييها، وأجد عينيها تنتظران عودة عيني. أزوغ ببصري عنهما. تضمّ طرفي الروب في مهل وتعقد الحزام حوله. هي على ما يبدو مستمتعة بعرضها، لا تسرع في إيقاعها.

ـ كل حاجة في متناول يدها. لا تغادر الفراش إلاّ للحمّام. كما ترى. على بعد خطوة، لو رأيتها! مسكينة. سمنتها غير معقولة. ترقد على ظهرها وساقاها منفرجتان على اتساع. لا تستطيع أن تضمّهما. الأطباء في الخارج نصحوا بإجراء عمليَّة لقصّ جزء من معدتها، وهي رفضت. قالت: ماله الأكل. حلو.

تلم شعرها المبعثر على كتفيها، ترفعه وتثنيه بالدبابيس:

ـ كانت نحيفة في بداية زواجها. وزوجها قال لها عظامك توجعني. فتحت في الأكل. تأكل وتسمن، وتأكل وتسمن. لا تستطيع أن تمسك نفسها، وأبو سالم لا يصعد إليها إلاّ قليلاً. طول الوقت في الحديقة ثم يختفي. يبحثون عنه ولا يجدونه. وأحيانًا يعثرون عليه راقدًا على كنبة في أي قاعة. له حجرته تحت. لا أعرف لم كان لا يقصدها بدلاً من الكنبة. يأتي بضيوفه، يأكلون ويخرج معهم. وجاءوا بي. قالوا تسليها. طول الوقت وحدها. ولا تفهم كلام الفلبينيَّات ولا الباكستانيَّات ولا إنجليزيَّتهن المكسّرة. وقالوا نأتي بسوريَّة. لبنانيَّة. وهي قالت مصريَّة. ترى في التلفزيون المسلسلات المصريَّة، وقالت آه، مصريَّة. هنا مقعدي. جليسة. وظيفتي.

أشارت إلى مقعد فوتيه بجانب الفراش:

ـ جرّبه. مريح.

تضـحك: ومن أول قـعـدة سـألتني عن أصلي وفـصلي وزوجتي وابنتي. وبعدها تحكي وأسمع. وكلّما حاولت أن أحكي ما يسليها تسمع قليلاً وتقاطعني لتحكي. وأنا أسكت. أسمع. وأسمع. حتى تعليقي لا تنصت له. وما تحكيه اليوم تنسى وتحكيه بعد أسبوع. أبوها. أمها. طفولتها. وصباها. وولدان من أقاربها لعبت معهما. كانت في العاشرة. والاثنان مغرمان بها، هي أيضًا تحب الاثنين. لا تستغني عن أيّ منهما. وحين يتأخَّر واحد منهما تخرج مع الآخر ليأتيا به. وتختلي بكلّ منهما في ركن أو حجرة خالية. يعني ـ ضحكت ـ مسكينة. لو رأيت بهجتها وهي تحكي عن صباها، وليلة والثانية وتعود لتحكي عنها. الحكايات الأخرى تغيب وتغيب وتعود لها. أمها ضبطتها وواحداً من الولدين في الحجرة المغلقة راقدين وكل منهما في حضن الآخر. أمسكت الولد وهات ياضرب وهي صرخت وحاولت تخليصه من يديها، وأمها تدفعها، ثم عضتها. عضّت أمها في ذراعها. واستدارت لها الأم. وكانت العلقة التي لم تأخذها من قبل ولا من بعد. وحبسها أبوها في البيت. ومنع الأولاد الذكور من المجيء. البنات فقط. آه. ولا واحدة في الدنيا إلا ولها حكايات في صباها ونسيتها. ومن يتذكر؟ وهي......

تهزّ رأسها أسفًا، كانت جالسة على طرف الفراش وإحدى ساقيها تحتها، تتحسّس ركبتها اللامعة وتخدشها خفيفًا بظفرها. كنت قبالتها مسترخيًا في مقعدها.

ـ طول الوقت تحكي وأسمع. أقول لها أعمل لك قهوة باللبن. تحبها. وتقول انتظري وتواصل حكيها. الولد الذي ضربته أمها ابتلع سمًّا يومها أو أقراص دواء. وأسعفوه. حين بلغها الخبر جنّ جنونها. خرجت من الشرفة، وتعلَّقت بشجرة. خدوش في كل جسمها. ومشت طويلاً حتى وصلت لبيته. أم الولد فتحت لها الباب. راحت تنظر إلى الأم صامتة. الخدوش بوجهها وقطرات دم جافّة. المرأة الطيِّبة أخذتها لتغسل وجهها وذراعيها وساقيها قبل أن تدخلها على ابنها. الولد الثاني كان معه.

قالت للمريض بعد أن خرجت الأم: أنا زعلانة منك.

وتقول وهو ساكت: زعلانة منك. لم تقل لي أنَّك ستنتحر. لو أخبرتني كنّا انتحرنا معًا. نختفي في مكان وننتحر.

في عودتها صحبها الولد الثاني. وفي الطريق بكت ووضعت رأسها على صدره، وهو يربِّت على ظهرها حتى هدأت.

وسألته: وأنت؟

قال: لا أحب الانتحار.

تتذكر كل ذلك وتحكيه بالتفصيل. ما أكلاه. وما شرباه.

وأسألها: وأين ذهبا ؟

ـ آه. ذهبا. واحد إلى لندن. الآخر الذي حاول الانتحار إلى أميركا. يأتي في إجازات لرؤية أهله. أسمع بمجيئه. معه زوجته وأولاده، وأقول لنفسي ربما يتذكَّر البنت التي كاد يموت من أجلها. لا يمكنه أن ينسى. ولابد أنَّه سأل وعرف أنِّي أيضًا تزوَّجت. لو كان حالي غير الحال لدعوته لزيارتنا. أحيانًا أتخيَّل أنَّنا التقينا. و أكون بعودي النحيل في أول الزواج. يمسك يدي، لا يقول، وأنا لا أقول. نتبادل النظر. لم أره أبداً بعد محاولة الانتحار. أهله وربما خافوا عليه، أرسلوه ليستكمل تعليمه عند أقارب في أميركا. بعد وصوله بثلاثة شهور أرسل الخطاب. استلمته أمي. وأنا لمحت إسمي على المظروف في يدها. هي قرأته واقفة. لم تكلمني، مجرد نظرة غاضبة رمتني بها. كنت وراءها عندما دخلتْ حجرة نومها. ورأيت أين أخفت الخطاب.

قالت في رجوعها وكنت أتطلَّع إليها:

ـ سيكون الخطاب عند أمه اليوم قبل بكره.

وحين دخلتْ الحجرة بعد ذلك لتأتي بالخطاب ولم تجده، نادتني:

ـ أخذتِ الخطاب؟

ـ آه أخذته.

كنت واقفة أمامها كالمحمومة. سألتني:

ـ وأين هو؟

ـ مزَّقته.

تحدِّق في وجهي، لابدّ أنَّها اكتشفت كذبتي. صرفتني دون كلمة. ولم يرسل غيره.

سكتت. ترمقني مبتسمة ثم حوَّلت نظرها عنِّي، وطال سكوتها، ثم قالت:

ـ علبة الزينة. تجدينه خلف بطانة غطائها. لم أقرأه من زمن.

بحثت كما أشارت. ورقة مطوية حالها حال. خشيت أن تتمزَّق في يدي وأنا أسحبها. وهي فردتها في رفق، واعتدلت في قعدتها لتقرأ:

ـ حبيبتي.

لم تقل غيرها. جرت عيناها بعد ذلك على الخطاب في صمت، ثم طوته كما كان. وقالت:

ـ أعيديه.

لا أفهم. كانت تريد أن تقرأه لي ثم غيَّرت رأيها. سرّ؟ حكت لي أسرارًا وأسرارًا. القصد. هي وشأنها.

نهضت زاهية من قعدتها. ضمّت الروب وانحنت على «الكومودينو» أخرجت طبقًا كبيرًا به مكسّرات، وضعته أمامي.

سألتني إن كنت أشرب شيئًا؟

غمغمت معتذرًا. عادت لجلستها:

ـ أحمِّمها مرتين في اليوم. مرة في الصباح. والأخرى قبل النوم. وأدعك جسدها بالبودرة، وأبخ الفراش بعطر الياسمين مرتين أيضًا. حين تسمع أنَّ زوجها في البيت تطلب أن تستحم، وأزينها تسند ظهرها وتنتظر، أغادر الحجرة، وأبو سالم لا يصعد، يقضي وقته مع أصحابه تحت في الدور الأول ويغادر معهم. إسمه وقتها كان ياسر وهي خديجة. سالم كان في علم الغيب. تناديني وتسأل:

ـ خرج؟

ـ آه خرجوا.

ـ اعدليني لأنام.

وأعدلها، وسرعان ما تروح في النوم.

تشير زاهية إلى الباب المغلق:

ـ حجرتي. تستدعيني بالجرس في اللّيل لأدخلها الحمّام. الجرس معلَّق بقائمة السرير فوق رأسي، يفزعني رنينه. أنتفض قاعدة. ويمرّ وقت وأنا قاعدة لا أعرف أين أنا، ثم يأتي رنينه مرّة أخرى. ويكون عليّ أن أسرع إليها. لا تستطيع أن تمسك نفسها.

سكتت. الوهن الذي تسلَّل إليها وحتى نبرة صوتها وما بها من مسحة أسى، وكأنَّها مقبلة على قول ما لا يسرّ، جعلني ذلك كلّه أتأهب لسماعه. هي مطرقة، وقد أحكمت طرفي الروب حول جسدها واختفى القميص الوردي. قالت في صوت خافت:

ـ حين رأيتك قلت أحكي معك. لا أحد هنا أحكي معه. من بلدي وتعرف أسرتي. وقلت لنفسي لو حكيت له ربما

يخفّف ذلك عنِّي. وطول الوقت أحكي عنها، ولا أحكي عنِّي. وما أردت قوله لم أقله. ولا أعرف إن كنت سأقوله.

سكتت. يحيِّرني انطواؤها، هي التي استقبلتني مزهوة بمفاتنها. ربما لمست تباعدي، وربما بلغها ما أصاب المستخدمين من الرّجال، وظنّت لكوني ابن بلدتها أنَّني مختلف عنهم، وأرادت أن تجرّب. ثم توقفت حين بدا لها ما بدا، وتغيَّر حالها. وأجدني غير مقتنع بخواطري، فربما تحرّكت بطبيعتها كما اعتادت. ولم أكن غريبًا في نظرها، ألفة لها طابعها، عادة ما تجمع البعض في الغربة وتزول بعد عودتهم، و أميل إلى تصديقها. لديها ما تحكيه عن نفسها، وكلّما همَّت بحكيه تجد نفسها تحكي عن الأخرى، وأنتظر متأملاً وجهها الجميل وقد مال جانبًا.

طال الصمت قليلاً وقالت:

ـ ربما في مرّة أخرى. لو رغبت في المجيء

وقفتُ. رمقتني لحظة وقالت:

ـ أنت أيضًا. تسمع طوال الوقت.

ابتسامتها الشاحبة:

ـ لم تقل كلمة عن نفسك. وأنا حتى لم أسألك.

سوّت بيدها صدر جلبابي المكرمش:

ـ أفتح لك الباب.

تقدّمتني إلى لوحة أزرار داخل حائط خارج الحجرة. ضغطت واحداً منها. ورأيت من النافذة البوابة تفتح. النافذة نفسها التي لمحتها تقف بها أثناء خروجي.

* * *

فاجأتني الأضواء الكثيرة ـ وكنت نسيتها ـ تنفجر ألوانها في الفضاء ، وبالونات كبيرة تحلِّق مربوطة إلى بعضها، شكّلت فوق الإمارة ما يشبه السقف. المحلاّت مفتوحة ومضيئة، حركة البيع المعتادة، وناس تمشي على جانبي الشارع. وقفوا مثلي ينصتون للهدير الذي يتصاعد مقتربًا، ولمحتهم بعد لحظات، جمهرة كبيرة تسدّ أول الشارع، يهتفون ملوِّحين بأيديهم. كانوا خليطًا من بلاد مختلفة بأزيائهم الوطنيَّة. باكستانيُّون. هنود. فلبينيون. سودانيُّون، وعرب يرفعون صور أعضاء فريق الكرة وعلم الإمارة. ثمة أغانٍ لم أفهم كلماتها، ورقصات كانت وسط الجمهرة حيث أفسحوا لها مكانًا. ومرّ تجمع السودانيين بجلابيبهم البيضاء الواسعة والعمامة الضخمة، يتمايلون ويصفّقون على إيقاع الدفوف. الهنود جاءوا بعدهم، يتصدّرهم صفّ من أصحاب الشوارب الكثّة المبرومة الطرفين. قاماتهم مشدودة، وصدورهم منتفخة ، وستراتهم طويلة تصل للركبة، وحلية تتوهَّج في منتصف عماماتهم الملوَّنة، تتشابك

أذرعتهم. بدوا أشبه بسدّ يحجز ما وراءه. ثمة محفة وسط تجمّعهم مرفوعة على أذرع الرجال مغطاة بالمسامير التي برزت أطرافها، يضطجع فوقها الفقير الهنديّ الخالد. يشبه غاندي إلى حدّ كبير، وسرواله القطني قصير يصل للركبة، ساقاه شديدتا النحول مثنيتان، ومتعانقتان. بعدهم يأتي الفلبينيون، يثرثرون ويضحكون وكأنَّهم في نزهة. بدا تجمُّعهم بقاماتهم القصيرة أشبه بمنخفض في الشارع. ثم جاء العرب، ملابسهم خليط من الجلباب والبدلة الكاملة بالكرافتة. مصري محمول على الأكتاف، بدا متحمسًا أكثر من الآخرين، يهتف «بالروح. بالدّم» ويردِّد التجمع الهتاف وراءه ملوِّحين بقبضاتهم. هتفتُ معهم في وقفتي مصفِّقًا، وعلى بعد كانت تتلألأ أضواء الإستاد، بدا أنَّه المكان الذي يقصدونه.

ما أن اختفت الجمهرة عند نهاية الشارع حتى ظهرت أخرى قادمة، يحملون الطبل والمزامير والبيارق وصور أعضاء الفريق ترفرف فوق رؤوسهم.

قلت ألحق بهم بعد أن ألقي نظرة على ما يجري بالقصر، وربما رغب أحد هناك في مرافقتي.

الباكستانيَّات الأربع تجمَّعن في قعدة أمام مسكنهن، يشرن لي أن أذهب إليهن. لا أثر للفلبينيين الثلاثة. ريشيم

وزوجها على مقعدين متقابلين في مدخل الحديقة، وأضواء جانبية حولهما، وأمامهما على منضدة أواني الشاي والقهوة.

قالت واحدة من الباكستانيَّات:

ـ يريد أن يذهب.

حين رأين حيرتي مالت وجوههن جانبًا وأخفين ابتساماتهن بأيديهن، وفهمتُ. هنّ على ما يبدو يعرفن أكثر مما ظننت وطول الوقت يرونني والفلبينيين نذهب ونأتي ونزعق ونضحك ولا شيء يشغلنا. وهن بالقرب منَّا لا يبدو منهن ما يوحي بأنهنَّ على معرفة بحالنا. ومرات أكون أمام مسكنهن، وأنادي عليهن لعمل ما، وتظهر الواحدة منهن بقميصها الداخلي وبيدها جلباب لم تلبسه بعد وألمح كتفيها العاريتين وجانبًا من ثدييها ولا يبدو أنَّ ذلك أقلقها أو سبّب لها حرجًا ولأنِّي أعرف أنَّهن غير عابثات لم أر في سلوكهن غير العجلة والألفة.

كنت مطرقًا لم أفكر، ثم نظرت إليهما هناك في مقعديهما «وهو؟ ما به؟ لكنَّها زوجته. ما يخيفه؟».

كدت أستدير متَّجهًا إليهما عندما قالت واحدة منهن:

ـ لم يأت بجلباب للنوم. ورفض أن يلبس جلبابًا من عند أبو عامر. ورفض أن ينام في سرير عامر.

ـ وريشيم جاءت تشتكي وتبكي وتقول إنَّها لا تعرف ماذا تفعل. وأخبرتنا.

ـ آه أخبرتنا.

ـ وقلنا لها على الأقل يبقى معك هذه الأيام. لن يستطيع رؤيتك والكلام معك بعد عودتهم من الخارج.

ـ يقول لها إنَّه كان يريد أن يراها، ورآها. والبقاء معها خطر عليهما.

وقلت: أي خطر؟

ـ سألناها. وقالت إنَّها لا تعرف.

قلت: ولم لا تقعدن معهما. ربما يطمئنه وجودكن.

ـ نوينا ذلك. وقلنا نتركهما يومًا وحدهما.

ـ بعد أن أخبرتنا بما كان بينهما تردّدنا، وقلنا نسألها أولاً. وهي رجعت له وعادت وقالت إنَّه يريد أن يذهب.

ـ ربما لو قعدتَ معه وكلّمتَه؟.

قلت: وفيم أكلِّمه؟. إن كان يريد الذهاب يذهب.

* * *

الشوارع خالية، الجميع على ما يبدو قصدوا الإستاد للمشاركة في الاحتفالات. المحلاّت مفتوحة ومضيئة، زبائن قليلون داخلها. العاملون بها تركوها، وربما ذهبوا مع من ذهب، تركوا لافتة صغيرة بالمدخل:

«تفضلوا بشراء ما تريدون. رجاء ترك الثمن بجوار ماكينة الحساب».

أخذت علبتي سجائر وعلبة ملبس أحبه، كومة من النقد في وعاء بجوار الماكينة. وضعت به ورقه نقد وأخذت الباقي. بجوار الوعاء علبة «توفي» كبيرة مفتوحة لسداد الباقي من العملات الصغيرة في حالة عدم توفرها بالوعاء.

همس سوريّ ورائي لرفيقه:

ـ كما ترى. ثقتهم في الزبائن بلا حدود. ما يتمّ تصويره يكون للذكرى وليس الرصد. كاميرات لا تُرى تلتقط حركة

الصرصار. لو كان هناك صراصير. وبعد مراجعة ما جرى، المغفّل الذي ظنَّ أنَّه فاز بالغنيمة سيرعبه بالتأكيد أن يرى نفسه متلبسًا في الصورة.

استدرت منصرفًا. وابتسمت خفيفًا لهما. كانوا أيضًا يتركون المحلاّت مفتوحة وبدون عاملين في أوقات الصلاة واللافتة معلَّقة. بادلاني الابتسام، سألت لمجرد الكلام:

ـ سوري؟

رغم لهجته السوريَّة قال: لبناني.

ابتسمت لهما مرة أخرى ومضيت.

فيما بعد عرفت أنَّ الهنود القائمين بالعمل في المخافر أفرجوا عن الموقوفين واشترطوا عليهم أن يؤدوا التمام في الصباح بالمخفر على أن يعودوا للحبس قبل عودة الطائرات بيوم. كانوا قد أُدينوا في جرائم بسيطة. عراك أدّى إلى إصابات خفيفة، تطاول بالشتائم.

أسير متسكِّعًا في الشارع الخالي. كنت قرَّرت الذهاب إلى الإستاد. و الآن أجد المشوار طويلاً، ولا ألمح عربات قادمة ولا أرغب في العودة للقصر ـ وبه ما به من مناحة ـ لآتي بسيّارة. أصدقائي في الإمارة قليلون. كلّهم في الأحياء القديمة، وربما

كانوا الآن في الإستاد. زمن طويل لم أشاهدهم، لو لحقت بهم؟ ستكون سهرة طيِّبة، نثرثر ونضحك ونشاهد ما يجري، وربما شاركنا في الاحتفالات.

وأجدني أمشي أمام قصر «أبو سالم» أتوقف متلفتًا. أفكر في الابتعاد. زاهية. طول الوقت في خاطري ولا أعطيها انتباها. وحدها في القصر. عدد العاملين هناك يقرب من العشرة. خرجوا، فضّلت هي البقاء. لم تذكرهم بكلمة أثناء حكيها، ليسوا في بالها، ربما لأنَّها ملتصقة بأم سالم، وتنام في حجرة تجاور حجرتها. يشعرها ذلك بتميُّز فلا تسعى للاختلاط بهم. غير أنَّها أيضًا لم تكن متحمِّسة للخروج، وبعد أن حكت ما حكت بدا أنَّها ترغب في انصرافي ربما أرادت أن تنفرد بنفسها، أم سالم كل ما يشغلها، حتى في غيابها. لو جاءت معي إلى الإستاد؟ تشارك في الزيطة هناك؟. أي فكرة غريبة!

أسير أمام القصر وأعود. أقول ربما وقفت بالشرفة وساعتها أعرض عليها الخروج.

وسمعت «هس» وكنت أتوقع سماعها. لمحتها في الشرفة تشير لي بالدخول.

أنزلق جانبًا. ألبوّابة فُتحت، ومشيت بطول الممر وسط الأشجار إلى باب القصر. تقف على البسطة بانتظاري، قالت ضاحكة:

ـ وكنت أقول ربما يعود.

أمسكت يدي وتقدّمتني إلى الداخل. تلبس روبًا بلون زيتوني غير محكم على جسدها. القميص الخفيف تحته بلون أصفر يصل إلى ركبتيها، ساقاها الجميلتان عاريتان، أراهما وهي تخطو أمامي. مرّة أخرى نسير في أروقة، ونصعد درجات سلم مغطاة بالسجّاد وندخل حجرة أم سالم. الإضاءة خافتة مريحة. أجدني متَّجهًا إلى مقعدها الفوتيه. إبتسامتها وهي تلمّ شعرها وترفعه. عنقها الأبيض النحيل. تتربع في مواجهتي على طرف الفراش قلت:

ـ ظننتك نائمة.

ـ آه نمت وصحوت. لا أستريح في النوم حين أكون وحدي. يأخذني الفكر هنا وهناك ويهرب النوم.

ـ تفتقدينها؟

ـ تعوَّدت عليها. كم سنة. لم أحك لك....

تعتدل في قعدتها، وتفك الروب قليلاً. وجهها مشرق:

ـ نادتني في ليلة. أقصد رنّ الجرس فوق رأسي.

نهضتُ فجأة: آه. نسيت.

أشارت إلى ركن الحجرة. منضدة فوقها أطباق و أواني طعام مغطاة:

ـ تأكل معي. قلت لو عاد سنتناول العشاء معًا. وانتظرت.

تخطو حافية نحو المنضدة، أتبعها. شوربة خضار، شرائح من اللّحم، وسلطة خضراء. أحسست بالجوع فأكلت، ترقبني مبتسمة. قالت:

ـ كثيراً ما آكل وحدي. هنا.

وأشارت لحجرتها:

ـ يأتون بصينيتها أولاً. أساعدها في تناول الطعام. وأمسح لها يديها وفمها بفوطة مبلّلة. بعدها يأتون بصينيتي، آخذها إلى حجرتي.

انتهيت من طعامي، وانتظرت حتى انتهت.

كدت أنهض، وأشارت لي أن أنتظر. غابت قليلاً وعادت، تحمل وعاء مزيّنًا بالصدف به ماء معطّر، وفوطة غمست طرفها بالماء ومدّته لي كعادة أهل الإمارة بعد الطعام. مسحت يدي

وفمي ومضيت إلى المقعد الفوتيه. جاءت بعد قليل ومعها منضدة صغيرة ووضعت فوقها أدوات الشاي والقهوة وترمس به ماء ساخن. في قعدتها انفرج الروب عن قميصها القصير. ورغم ما بان من فخذيها البضتين لم أحسّ برغبة. هو الفضول، وربما ما اعتدنا عليه من النظر إلى ما يتعرَّى من جسد المرأة. قالت:

ـ أقرأ لك الفنجان؟

ـ أي فنجان؟

ضحكت: فنجان القهوة أقرأه لها من ليلة لأخرى. تقول:

ـ شوفي أخباري معه.

تقصد زوجها. أقول:

ـ كله خير.

ـ عارفة أنَّه خير.

كانت مطمئنة له. حتى عندما توقف عن الصعود إليها. تجد له العذر دائمًا، ولا خطر لها أبدًا أنَّه يسعى للزواج من غيرها. هي من عائلة لها كلمتها، وجانب كبير من استثماراته بأموالها. لم تقل لي ذلك مباشرة، فهمته مما كان يرد في حكيها عن سنوات زواجهما الأولى.

تصب الشاي وتناولني الكوب، كوبها في يدها تتأمَّل البخار المتصاعد، أعادته للمنضدة:

ـ يوم نادتني في الليل، كنت أدخلتها الحمام من ساعة زمن. والجرس يرن. قلت خير. ذهبت إليها. كانت متَّكئة على كوعها، والأباجورة جنبها مضيئة. عيناها صاحيتان على غير العادة، ترمقني في صمت. وقالت:

ـ ياسر هنا.

ـ لم أسمعه.

ـ ولا أنا سمعته.

تشممتُ الهواء في اتجاه باب حجرتها المفتوح. لا أثر لعطره الذي يميّز حضوره، وكان يفوح دائمًا قويًّا. قالت:

ـ ولا عطره. لم يضعه هذه المرّة. قصد ذلك حتى لا أعرف بوجوده. إحساسي لا يكذّبني أبدًا. أنظري ما يفعله تحت.

كنت بقميص النوم. واستدرت نحو حجرتي. قالت بنبرة غضب:

ـ أين؟

ـ إلبسي الروب.

حركة يدها. أعرفها عندما تظهر ضيقها أو قرفها. ضايقني ما فعلته. هي تفعل الكثير وأعذرها. إنما القصد. وقفت ساكنة. وهي التفتت نحوي:

ـ مالك؟ البسي الروب. وحتى لو لم تلبسيه!

وأشاحت بوجهها. لابد أنَّ وجهي احمرّ. وكنت أمسك نفسي حتى لا تطفر الدمعة من عيني. ووقفتُ ساكتة. انتبهت بعد لحظة لنظراتها ترمقني من فوق لتحت. ما غيّرها؟ هي هكذا. من حال لحال، ودائمًا أستجيب لها. إنما هذه المرة لن أفوِّتها. سأزعل بصحيح. وكنت فعلاً زعلانة، وهي لا تزال تتأمَّلني من فوق لتحت وتمدّ رأسها قليلاً لتراني من الخلف ثم صعدت عيناها وتوقفتا على صدري، وأنا انكسفت من بصّتها. وسترت صدري بذراعي وبقيت لا أعرف ما أفعل. حركة ذراعي نبهتها مما كانت تفكر فيه. نظرتْ في عيني ومالت برأسها. وقالت:

ـ إلبسي الروب

وأراحني ما قالته. فيما بعد حين فكّرت خطر لي أنَّ كل ما حدث بعد ذلك كان بدايته هذه اللّحظة، وألوم نفسي، لو أنَّني تصرّفت وقتها بشكل آخر. ما أدراني بما كان يدور في رأسها .

لبست الروب ونزلت للدور الأول.

أمشي حافية حتى لا تُسمع خطواتي. به ثلاث حجرات نوم للضيوف واحدة منها كانت مغلقة. رحت وجئت وتمهلت أمام بابها. همس بداخلها، رغم ذلك ميّزت صوته.

صعدت إليها وأخبرتها. سألتني:

ـ ومن معه؟

ـ لا أعرف.

ـ الصوت. امرأة. رجل؟

ـ لم أسمع.

ـ سمعت صوت ياسر؟

ـ لم أسمعه. عرفت فقط نبرة صوته.

ـ نبرة صوته! طيب.

تتلفت هنا وهناك ثم تقول:

ـ انزلي. واعرفي من معه وتعالي.

ـ وكيف أعرف؟

ـ ضعي أذنك على الباب.

ـ ولو فتح الباب؟

ـ حتى لو فتح قولي إنَّني أرسلتك.

ـ لا أقولها .

ـ طيِّب افتحي الباب وكأنَّ الأمر سهو . وانظري .

ـ ولو كان معه واحد من أصحابه . ما يكون موقف الأستاذ ياسر. لا تقولي كلامًا يأتي بمصائب .

ـ أيّ مصائب؟

سكتت . وأنا سكتّ . واسترخت للوراء. قالت :

ـ يوجد مقعد فوتية يخفيه العمود أمام الحجرة . تكوري فيه إلى أن يخرجا وتعالي .

ـ وافرضي أنَّهما بقيا في الحجرة حتى الصبح .

ـ عارفة إنَّها واحدة . ولابدّ أن تخرج في الليل وعارفة طبع ياسر. ينتهي منها ويسعى لإخراجها .

لا يغلبها أحد في الكلام. زوجها وهي أدرى به .

نزلت . تكوَّرت في المقعد، ولففت الروب حولي . القاعة باردة . كل خوفي أن أنام، وكدت أنام حين سمعت تكة قفل الباب . خرج هو أولاً ، وهي كانت واقفة خلفه تعدِّل معطفها . به غطاء للرأس، شعرها قبل أن تغطيه أشقر، حلوة وقمر. خديجة ستسألني . ملأت عيني منها . انتظرت حتى سمعت باب القصر يفتح ويغلق وصعدت إليها .

كـانت قـاعـدة في الفـراش وسـاقـاهـا منفـرجـتـان . وجـهـهـا منتعش. تشير لي أن أسكت . وأنا تعجَّبت من حالها، وأشارت للمنضـدة الصغـيرة وبراد الماء والكوميـدينو . أعـددت لهـا كل ما طلبـته . طبق الحلوى، طبق التسـالي، وكوب النسكافيه وأشـارت لأجلس على الفراش بجوار ساقيها وجلست . قالت :

ـ و الآن . إحك .

وحكـيت . قـلت مـا رأيتـه : طلبت أن أصف لـهـا المرأة . وصفت . طلبت أن أعيـد الوصف . وأعدت . تلتهم قطع الحلوى، واحدة بعد الأخرى وعيناها على وجهي قالت :

ـ استيراد . أعطني الفوطة .

أعطيتها الفوطة المبلّلة، مسحت يديها وفمها . قالت :

ـ ممرضـات في المسـتـشـفى : المدير هنـاك عـرض. يـتـعـاقـد معـهـن من أوروبا واسـتراليـا . وربما لـم يكـنَّ ممرضات أصلاً . يقـدِّم لهـم هـذه الخدمـة في الإمارة . وطال بقاؤه في المستشفى، سـمعت عن ذلك من قبل؟

ـ ما أسمعه لا أحكيه .

ـ صحيح . نسيت .

وكأنما تفكِّر بصوت مسموع . قالت :

ـ ما أستغربه أن يأتي بها إلى هنا. عنده شقّة في الضواحي. أكثر من واحدة أخذها إلى هناك. وهذه؟ أتعرفين سبباً؟

وأنا لا أرد. استمرّت في كلامها:

ـ ربما لأنَّها أوروبيَّة، وربما أول مرّة لها معه، أراد أن يريها القصر والأبهة. من يعرف. لو أنَّك فقط سمعتِ أي كلام بينهما كنت فهمتُ. وربما سمعتِ وتخفين عنِّي؟

وقلت إنَّني لم أسمع أي كلام بينهما والمقعد كان بعيداً عن الباب.

وتسأل: حتى وهما خارجان. ولا كلمة؟

قلت: ولا كلمة.

تتأمَّلني لحظة في صمت وقد زال انتعاشها.

ـ من اختار اسمك. زاهية؟

ـ أظنُّها أمي.

ـ يعطيها العافية.

ـ ماتت من زمن.

ـ لا يمنع.

وأشارت للمنضدة:

ـ شيلي. ومدديني.

أرقدتها في الوضع الذي طلبته. تنهّدتْ طويلاً وأغمضت عينيها.

انحنيت لأرفع المنضدة بما عليها، وسمعتها تقول: لا أعرف إن كنت حكيت لك. وأنا أبكي في صباي على صدر الولد. دائما أقول الولد. ولا أقول إسم أيّ منهما. مدّ ذراعه حولي يشدُّني إليه ويهمس بكلام ليسكتني، وأنا أبكي. لم أحسّ بيده على ظهري، ثم أحسست بها تنزلق وتنزلق. لم أسمح لهما من قبل بغير القبلات. شهقاتي توقفتْ. واستمرَّ بكائي، ويده استمرَّت، خطر لي وقتها أنَّ بكائي لو توقف ستتوقف يده. آه. اطفئي النور. أحكي لك في مرّة أخرى.

سكتت زاهية. تتأمَّل حزام روبها المدلى على الأرض، وجاء صوتها وكأنما من بعيد:

ـ وأطفأتُ النور.

سألتني إن كنت أريد أن أشرب شيئًا؟

لم أرد. وهي لم تسأل ثانية.

بدا أنَّها توقفت عن الحكي، وربما كان سؤالها عما أشربه لتحثني على الانصراف. أرقبها متأهبةً للوقوف. زهوها وقد أخذ يخبو كشعلة مصباح تخفت على مهل. تنزع خيوطًا من طرف حزام الروب وتكوّمها بجوارها. الأضواء في الخارج تتوالى على زجاج النافذة، تنثر ألوانًا تتحرّك فوق الفراش، تحاول أن تمسكها بيدها. همست:

ـ يطلقون الصواريخ.

سكتت. همست مرّة أخرى:

ـ كنَّا نطلقها في صغرنا أيام العيد.

سألتها إن كانت تريد الخروج لمشاهدة الاحتفالات.

التفتت نحوي: أخرج؟

نبرة صوتها كأنما فوجئت بطلبي. وشحوب خفيف بوجهها كدت أسألها عما بها. قالت:

ـ آه. مرّات يتعبني الكلام.

ـ كلهم في القصر خرجوا؟

ـ آه. يخرجون.

ـ وأنت؟

ـ وفيم خروجي. كل ما أحتاج له هنا. والصواريخ أراها من الشرفة. وحتى عندما أردت أن أحكي جئت أنت.

رمقتني في وداعة، ويداها بين ساقيها:

ـ حين ناديتك هذه المرّة كان في نيتي أن أحكي عنِّي. وحتى قبل أن ألمحك قلت لو جاء سأحكي عن نفسي. يكفي ما حكيته عنها.

وقفتُ. هي ما تزال في قعدتها ترمقني، ثم نهضت:

ـ لا أعرف. ربما حكيت.

تقدَّمتني إلى خارج الحجرة، وضغطت الزر في اللّوحة.

وخرجت.

* * *

سرتُ في الشارع الخالي باتجاه الاحتفالات. منتصف الليل. والمحلاّت أغلقت، والقصور على الجانبين مطفأة الأنوار، ضوء خافت عند البوّابات الخارجيَّة. غالبًا ما ستمتد الاحتفالات ساعتين أو ثلاث، وبذلك يكون أمامهم وقت للرّاحة حتى يلحقوا بأعمالهم في التاسعة صباحًا.

حافلة قادمة. توقفتْ دون أن أشير لها. صعدتُ. باكستانيُّون وسودانيُّون يتبادلون الغناء كلٌّ بلغته، وأصابعهم تنقر على ظهور المقاعد.

الإستاد ممتلئ عن آخره، وامتدّ وجودهم إلى الخارج مع دوران الأسوار، وصعد إلى الهضاب حوله، وكأنَّ الإمارة تجمَّعت كلُّها هنا. خليط من اللهجات وروائح الطعام. أشقّ طريقي بسهولة. ثمّة ممرَّات متعرّجة وسط الزحام كانوا يحافظون على خلوها. الأضواء كثيرة وباهرة، بعضها مسلّط بقوة على صور كبيرة للاعبي فريق الكرة. أطعمة كثيرة وشواء يلتفّون حوله.

نزلت إلى ساحة الاستاد. ثلاثة تجمعات راقصة متجاورة. جذبني التجمّع الهندي. راقصة في الوسط يلتفّ حولها ثعبان ضخم تمسك برأسه وتدور به؟ وانتشرت خلفها راقصات بأزيائهن الملوّنة وبطونهن عارية يحملن حلقات من الورود. العازفون بآلاتهم يفترشون الأرض ووراءهم يشتدّ زحام الهنود. لمحت الفقير الهنديّ ما يزال راقداً فوق المسامير مسترخيًا على جنبه يدخّن من قصبة في يده. يمتدّ خرطومه متعرِّجًا ليتوقف عند هنود قاعدين حول جمرات مشتعلة فوقها شواء وبينهم الشيشة الضخمة.

الحلقة المجاورة كانت للرقص الباكستانيّ. كلُّهم رجال. غناؤهم أشبه بالتراتيل الدينيَّة يصحبها ذكْر وتسابيح ووقوف للابتهالات. على رؤوسهم طواقٍ بلون أخضر منقوش عليها حروف باللّون الأبيض.

الحلقة الثالثة رقص مصريّ. راقصة ممتلئة الجسم بجلباب من الحرير الأسود اللامع مغطى بالترتر، تلف وسطها بشال عقدته على جانب ردفها. يتحرَّك إثنان معها، أحدهما يمسك الطبلة، يكاد يزحف في قرفصته خلفها، والآخر يرفع رقًا ويخشخش. بعدها دخلت فرقة المزمار البلدي، ورجلان اندمجا في رقصة التحطيب.

أحسست بالجوع وروائح الأكل تفوح حولي. أتلفت باحثًا عن تجمُّع مصري أتناول معه الطعام. الكثيرون من جنسيّات مختلفة حول صواني الأكل يدعونني أثناء مروري بإشارة من أيديهم. لا أميل للبهارات الحامية التي يخلطون بها أطعمتهم.

ألمح خيامًا متناثرة فوق هضبة وسط رمال الصحراء وأنوارًا صغيرة حولها. تُفضل على ما يبدو الابتعاد عن الزحام، وأرى من يلوح لي هناك، الفلبينيون الثلاثة. سرت إليهم.

شرح لي واحد منهم سرّ الخيام المبتعدة.

قال إنَّهم خدم القصور.

وقلت أستكمل ما يقول: ولا يريدون الاختلاط بالآخرين.

شخر شخرة قويّة وانحنى من الضحك.

قلت إنَّ الشخير الفلبيني مثل نقيق الضفادع.

قال بخليط من العربيَّة والإنجليزيَّة:

ـ مصري يفهم نص نص. شخيركم كالعجول. هم خدم القصور. سيبيتون هنا. معهم أغطية ومواعين وكل شيء. طول

فترة المباريات يبيتون هنا. في الصباح يذهبون للقصور لتنظيفها، ويستحمّون في حمّامات السباحة كما رأيتنا ويعدّون الطعام ويأتون به إلى هنا.

سألته عن الباكستانيّات.

قال إنَّ الخمس هنا.

وأشار إلى خيمة في الطرف.

ـ وريشيم؟

ـ آه. و ريشيم.

ـ وزوجها؟

ـ لم أره معهن. تعال نذهب إليهن.

كنَّا نقف وسط خيام الفلبينيين، والنساء تجمعن في خيام مجاورة.

قلت: مع أبناء وطنك. وأين خيام المصريين؟

ـ وفيم تريدهم؟

ـ اشتقت للطعام المصري.

ـ بخ. بخ. سآتيك به.

ـ أين؟

ـ أعرف مكان خيامهم.

الباكستانيَّات الأربع من قصر «أبو عامر» يقعدن مع أخريات أمام الخيام حول موقد نار يشوين الذرة وأبو فروة.

سألت عن ريشيم.

قالت واحدة من الأربع وهي تمط شفتها:

ـ في الداخل.

وأشارت إلى خيمة وراءها مطفأة النور وقالت:

ـ لا تريد أن يكلِّمها أحد.

أخذتني جانبًا.

ـ تظنّ أنَّها لم تعد تعجبه. وتقول إنَّه لابدّ عرف أخرى. هي تعرف ونحن نعرف أنَّ الأمر غير ما تقول. وقلنا لها. وما في دماغها في دماغها. تقول إنَّه كان على الأقل قعد معها في غيابهم.

شغلني أمر زوجها ربما يخشى أن يُكتشف أمر زواجهما، ويعني ذلك تزويرًا في الأوراق المقدّمة للإمارة. أردت أن أشرح لها، ثم سكت.

عدنا للموقد. وقعدت معهن. الفلبيني الذي كان يكلِّمني اختفى. رأيته بعد وقت قادمًا يحمل وعاء، وضعه أمامي في ضحك صاخب:

ـ مصري يأكل مصري.

الوعاء ممتلئ بمحشي كرنب وفخذ ضأن مشوية. تذوقت باكستانيَّة المحشي وأبدت إِعجابها. امتدَّت أيدي الباكستانيَّات إلى الوعاء.

ضحك الفلبيني حين رأى المحشي ينفد، وأسرع مبتعداً. عاد بعد قليل يحمل وعاء أكبر تتبعه مصريَّة في الأربعين تحمل هي الأخرى وعاء.

قالت حين رأتني إِنَّها لم تفهم كلمة من الفلبيني ولا هو فهم كلمة مما يقال له، وجاءت لترى إن كنَّا نريد شيئًا آخر. عندهم بامية وملوخية وفراخ مشوية.

وقلت إنَّ المحشي يكفي.

قالت: معنا من يعرفك. لم لا تمرّ علينا؟

ـ ليلة أخرى. أيام المباريات طويلة.

ـ ويقولون لك إنَّ عندهم معسَّل تفاح إن كنت تريد.

ـ بلغيهم شكري. لا أدخن المعسَّل. أين تعملين؟

ـ بكوافير السعادة في الضاحية الثالثة. وأنت؟

ـ في قصر أبو عامر.

ـ أعرفه. الست أم عامر كلها ذوق. استدعوني مرّة لأمشِّط لها ولابنتيها شعورهن. كنَّ مسافرات.

وثرثرتْ قليلاً مع الباكستانيَّات ورجعتْ.

أخذني النوم سريعًا. نمت في خيمة مع الفلبينيين الثلاثة. آخر ما شاهدته من موقعي كان صور اللاعبين المعلّقة بأعمدة مرتفعة والريح تهزّها خفيفًا، والضجة مستمرة بإيقاعها المختلط. وقبل أن أغفو دخلها صوت جديد، صاجات تدقّ في عنف. الصوت مألوف، وكأنَّها صاجات فرقة المزيكة في بلدتي. ومن أين جاءوا بها. لم أرها تباع هنا حتى ولا عند تجّار المستعمل والخردة، وربما جاءوا بباقي آلات الفرقة أيضًا، النفخ والطبل. أرهفت أذني وبي شوق لسماعها. أصوات موسيقى البلاد المختلفة لا تسمح بسماع شيء. وحده صوت الصاجات كان طاغيًا، وربما ظهر عازفو الفرقة في الإستاد بنفس ملابسهم الكاكي والشرائط الحمراء تزيِّن صدورهم وأكتافهم. وقلت أراهم في ليلة أخرى.

خايلتني زوجتي والنوم يأخذني. جاءت كما رأيتها لدى ذهابي في إجازة. كنت واقفًا وسط الحقائب. أقبلت مهرولة، خجلة من الفرحة التي غمرتها، تنظر هنا وهناك حتى لا تلتقي عيوننا. تلبس جلبابًا خفيفًا بدون كم، مفتوح الصدر، يشفّ عن انسياب فخذيها. متأهِّبة لترمي نفسها في حضني، كنت واجفًا من حالتي وخذلاني معها، وفي لحظة شعرت بها ـ الرغبة ـ تسري ناعمة كالبخار في جسدي، وما يشبه غمامه ثقيلة أخذت تنقشع، وقفت ساكنًا. أخشى الحركة. كم افتقدت هذه اللّحظة، وجسدي ينتشي. دفء عذب يخدِّرني خفيفًا، أحسّ تدفقها، من شدتها لم أفلت امرأتي من ذراعي حين حاولت أن تغيِّر من وقفتها، استكانت لحضني والتصقت بي. قضيت اليوم في الفراش لم أغادره. تنهض امرأتي من جواري وتلبس روبًا لتجيب الطارق، وأسمعها تعتذر للزوّار من أقارب أو جيران بإرهاقي من السفر ونومي، وتغلق الباب لتعود إلى الفراش. أحايلها لتلبس ما جئت به من ملابس داخليَّة مثيرة. تتمنّع وتهزّ كتفيها، ثم تلبسها أخيرًا وهي تداري وجهها. تغمغم:

ـ دي فضيحة.

وتسألني إن كنت لا أنكسف أثناء شرائها؟

تسليتي الوحيدة في الإمارة، الوقوف أمام الفترينات التي تعرض ملابس النساء الداخليَّة، أشتري الأصغر حجمًا الذي لا يخفي شيئًا. أشتري الكثير، أشكال وألوان. وأكون وحدي ليلاً في حجرتي بالقصر، وأفتح الحقيبة التي خصَّصتها لها، أفرغها، أتأمَّل قطع الملابس، أفردها واحدة بعد الأخرى، وأتخيَّل امرأتي بها، ثم أعيد ترتيبها في الحقيبة وأغلقها.

توقظني ضجة غير الضجة التي صاحبتني أثناء نومي، وربما كان اختلافهما ما أيقظني. أصوات الكثير من الموتورات. ألقيت نظرة من فرجة بالخيمة. الشمس ساطعة، والإستاد فارغ، ثم لمحتها ـ عربات النظافة ـ تزحف بامتداد جوانبه، وعمال يجمعون القمامة انتشروا أيضًا خارج الإستاد. الخيام طويت جوانبها وبدا الفرش داخلها وحقائب ولفائف كانت خالية من أصحابها. ذهب الجميع على ما يبدو إلى أعمالهم.

وظهر الفلبيني زميلي في قصر أبو عامر. كان قادمًا يزرِّر بنطلونه:

ـ صحيت؟ رأيتك نائمًا كالميت. قلت أقضي حاجتي وأوقظك.

قعد بجواري:

ـ ذهبوا. سبقونا إلى القصر. الجراح ينتظرنا لم ننظفه أمس. والعربات أيضاً

سرنا عائدين.

* * *

في العصر خرجت بالسيّارة. الباكستانيّات الخمس بعد أن نظّفن القصر قمن بإعداد الطعام للعشاء في الخيام، وأخذن غطسًا في حمّام السباحة، وكان صياحهن يصل إلينا ونحن في الجراج ننظّف السيّارات. بعدها قعدن أمام مسكنهن يمشطن شعورهن المبتلّة.

أخبرني واحد من الفلبينيين أنّهم ـ الثلاثة ـ لن يذهبوا إلى الإستاد الليلة. لديهم سهرة أخرى.

بعد لحظة قال:

ـ لم تسألني عن السهرة الأخرى؟

ـ إذا كنت تريد أن تحكي عنها احك.

ـ المقهى الكبير في الأحياء القديمة. سيأتي الأفريقيّ.

ـ ومن هو الأفريقيّ؟

نظر إلى زميليه مبديًا تعجبه. وسألني:

- ألم تسمع عنه؟

- لم أسمع.

- أنتم المصريين تحيِّرونني. كلَّما ظننت أنَّني فهمتكم أكتشف أنَّني لم أفهم. الجميع هنا يعرف الأفريقيّ. كل الجنسيّات. وأنت ولا هنا. هو الوحيد بين المستخدمين في الإمارة الذي أفلت من اللّعنة التي ابتلينا بها. مازال سليمًا.

- كيف؟

- رأيته بعيني.

توقفتُ عن تجفيف السيّارة واستدرت إليه:

- رأيته بعينك؟

- ورآه آخرون. لن أقول كلمة أخرى بعد هذه النظرة في عينيك. إن أردت أن تراه فتعال معنا.

- لابدّ أنَّ أحدًا سأله عن السبب؟

- كل ما قاله إنَّ دقّ الطبول لا يتوقّف في رأسه.

- من أيّ بلد هو؟

ـ من يعرف. غابات. ووحوش تقفز. وقردة على الأشجار. ودقّ الطبول يتصاعد. بم. بم.

الفلبينيان الآخران يبتسمان في صمت. هما كما يبدو على علم بما يقوله.

تواعدنا على اللِّقاء في المقهى الكبير بعد صلاة العشاء.

لدى خروجي ألقيت نظرة على قصر «أبو سالم»؛ الشرفة خالية. مضيت.

الشوارع في حركتها المعتادة، والمحلاّت مفتوحة، ومستخدمون يدخلون ويخرجون.

مررت بالمخفر. تمهلت، وكان بلغني أنَّ الموقوفين فضَّلوا الرقاد فترة النهار خارج الحبس، تمدَّدوا على حصر خلف المخفر حيث يمتدّ الخلاء وصفوف الأشجار. لم أر من سيّارتي غير بعض أقدامهم الممدودة. سيقانهم نحيلة قاتمة انحسر عنها الجلباب، وشباشب بجوارها.

الهنديّ القائم بالأعمال في المخفر يقف أمامي ويداه في وسطه. رمقني بنظرة خاطفة أحسَّست أنَّها فحصتني بما يكفي.

الأسواق ـ وكنت أقصدها ـ مزدحمة، والمساومة شديدة يجيدها البائعون وأغلبهم من الفلبينيين لا يفرّقون في حدّتهم

بين رجال ونساء. اشتريت شالاً، وخبزًا إيرانيًّا، ومكسَّرات لبنانيَّة طلبتها الباكستانيَّات في القصر.

قبل مغادرتي الأسواق سمعت بالخبر «تقرَّر أن يلعب الفريق أولى مبارياته بعد باكر في الخامسة مساء، ويُمنح المستخدمون إجازة نصف يوم لمشاهدة المباراة، وستُعدُّ شاشات كبيرة بالإستاد لمن يفضِّل رؤيتها هناك».

* * *

المقهى الكبير مزدحم على غير العادة. البعض تجمَّعوا أمام النافذتين المفتوحتين، وكانتا بمستوى الرصيف تغطيهما أسياخ حديد. بحثت عن الفليبينيين الثلاثة، لمحتهم في المقدّمة بالداخل، جاءوا مبكِّرًا على ما يبدو. ثمة مقعد شاغر بينهم لابدّ أنَّهم حجزوه لي، شققت طريقي بين الواقفين حتى وصلت إليهم.

قال واحد منهم:

ـ المرّة الثانية التي نراه. الأولى كانت من أربعة شهور.

دائرة من الفراغ وسط المقهى حيث جلس الأفريقيّ على مقعد وبجانبه منضدة يشرب الشاي ويدخِّن الشيشة. يبدو غير مبال بالعيون التي تحدِّق إليه من كل جانب، مستمتعًا بنفثات الدّخان يطلقها في حلقات. عامل المقهى يقعد أمامه يعيد ترتيب الجمرات بالماشة.

الأفريقي أسود نحيل. شعر رأسه خشن به شعيرات بيضاء، وله لحية صغيرة مدبّبة، يلبس جلبابًا أبيض بدون ياقة واسع الكمين. اكتفى من الشيشة وناول المبسم للعامل الذي حملها وكوب الشاي الفارغ وابتعد. رجع بعد قليل وبيده طبق وجردل بلاستيك متوسط الحجم مما يلعب به الأولاد على الشاطئ.

مدَّ الأفريقي ساقيه وتعانقت قدماه. بهما شبشب من الجلد كالح تشقّقت سيوره. دفع بالطبق قليلاً إلى حافة المنضدة، ورمى بنظره حوله. وجاءه عامل المقهى بكوب من الحلبة.

تحرَّك الواقفون باتجاه الطبق واحدًا وراء الآخر. وضعوا به نقودًا وعادوا، ثم نهض الجالسون وكنت معهم. وضعوا نقودًا هم أيضًا. حين جاء دوري ألقيت نظرة قريبة عليه، رائحة عرقه نفّاذة رغم مروحة السقف التى فوق رأسه. بشرة وجهه جافَّة، وشفتاه ناشفتان، وأثر جرح قديم بطول الإصبع بجانب رقبته. عدت إلى مقعدي وقد خاب أملي في العثور على شيء يميِّزه.

يرشف الحلبة الساخنة في بطء.

عاد الجميع إلى أماكنهم وساد السكون. أزيز المروحة الناعم فوق رأسه. وضع كوب الحلبة جانبًا، والتفت إلى الطبق. قلّب بإصبعه الأوراق النقديَّة، ومطَّ شفته وعاد إلى استرخائه،

تناول الكوب، أخذ رشفة طويلة ونظر إلى الواقفين بالنافذتين. تحرَّكوا عقب نظرته وشقّوا طريقهم إلى الداخل، وضعوا نقوداً بالطبق وقعدوا أمام الجالسين على المقاعد.

جذب الأفريقيّ الطبق إليه. جمع النقود الورقيَّة، طواها ودسَّها في جيب داخليّ في الجلباب، ثم أفرغ النقود المعدنيَّة في كفه ومدَّها إلى جيب السيالة.

نهض واقفًا وأقبل العامل، جذب المقعد والمنضدة إلى الخلف. فرد الأفريقيّ طوله، أخذ نفسًا عميقًا، سار خطوتين وتراجع خطوة، رمى ببصره فوق الجميع، فتح ساقيه قليلاً، فرقع بإصبعين على بعد ياردة من حجره وأطلق من فمه صوتًا رفيعًا ربما كان صفيراً. أغمض عينيه ووقف ساكنًا وكأنما ينأى عمَّا حوله. لحظة وأخرى. وسرت رعشة تكاد لا ترى بالجلباب عند حجره. انحنيت محدِّقًا، الآخرون أيضًا، صوت الأنفاس حولي، تماوج الجلباب وكأنَّ شيئًا يتحرَّك في رقاده. أخذ الجلباب ينتفخ حتى استقرّ فيما يشبه خيمة. رمقها الأفريقي ثم رفع رأسه محتويًا الجميع بنظره، شمّر جلبابه وأنزل سرواله. دار حول نفسه في بطء. عضوه ضخم، نقره بطرف إصبعه، اهتزّ ثم استقرّ في وضعه الشامخ. جاء عامل المقهى بكوب ماء صبّه في الجردل، أشار له الأفريقي أن يعيد الكرّة. صبّ العامل كوبًا آخر، وناول

الجردل للأَفريقي الذي علَّقه بعضوه ودار حول نفسه. قام بدورتين، ثم وقف ساكنًا، ومال رأسه جانبًا، بدا كأنما يرهف سمعه لصوت ما، بعدها ناول الجردل للعامل ولبس سرواله. قفز واحد من الزبائن وجاءه بالمقعد. استرخى مادًّا ساقيه ويداه فوق حجره، وأغمض عينيه.

الصمت حولي، والنظرات تحدِّق به، والوجوه كأنما في غيبوبة. سرت الحركة بينهم في بطء إثر سعلة خافتة. وقفوا دون صوت، نظروا إلى الأفريقي مرّة أخيرة، وكان ساكنًا في مقعده كالميت.

تسرّبوا إلى الخارج.

سرنا إلى العربتين صامتين. قال واحد من الفلبينيين:

ـ الله عادل. اختاره أفريقيًّا. لو أنَّه من جنسيّة أخرى من يدري ما كان يحدث.

قال آخر:

ـ دقّ الطبول يفعل كل ذلك؟ ربما المقويات التي يعلنون عنها. زرقاء. وحمراء.

ـ اللّعنة أقوى منها. جرّبوا هنا كل ما يُعلن عنه. ولا أثر. وأنا واحد منهم.

ـ وفيم تعاطيتها؟

ـ مجرّد أن أرى. ولم أر.

وسألوني عن رأيي باعتبارها المرّة الأولى التي أشاهد فيها العرض. وقلت:

ـ لا أعرف. لم أسمع بشيء مثل ذلك من قبل. علناً. وسط الناس. وبلا رغبة. وكأنّك تضغط زرًّا. ربما دقّ الطبول كما تقولون.

ـ معجزة بالتأكيد. والتاريخ به كثير من المعجزات.

* * *

انفجرت الهتافات صاخبة. انطلقوا من الإستاد بعد أن شاهدوا فوز الفريق في مباراته الأولى على الشاشات الكبيرة المعلَّقة، واندفعت المسيرات في الشوارع. اختلطت الجنسيّات المختلفة ببعضها، وتصاعدت هتافاتهم بأكثر من لغة. ربما كانت المرّة الأولى التي تخرج فيها النساء في مسيرات. في البداية اختلطن بالجميع ثم انسحبن وشكّلن مسيرتهن.

كنت معهم، وحين اقتربت المسيرة من قصر «أبو عامر» أحسست بالتعب. الوقت يقترب من منتصف الليل، وكانوا لا يزالون في البداية، وأمامهم شوارع كثيرة يجوبونها. سرت إلى القصر، مررت في طريقي بقصر «أبو سالم» وفوجئت بصوتها «هس».

لمحتها واقفة بالشرفة ثم استدارت إلى الداخل.

البوّابة مفتوحة. تنتظرني كعادتها على بسطة سلّم القصر، تضم الروب بيدها، والحزام مدلى على جانبيها. تبعتها

إلى القاعة الكبيرة، الأضواء خافتة. رغم ذلك استطعت أن أميِّز لون الروب الأخضر، ورسم التنين على ظهره. الأرواب الصينيَّة المنتشرة بالأسواق، هي من الملابس المفضَّلة لدى المستخدمين، سعرها المناسب وشكلها الجميل، وتصلح كهدايا معقولة. القميص أطول من الروب، يصل إلى قدميها، بلون بني فاتح، ونقوش بذيله. توقفتْ لحظة قبل أن تصعد السلّم حتى ألحق بها، وكنت مقبلاً، لمحت القميص من خلال الروب المفتوح ملتصقًا بجسدها. بانت استدارة بطنها ودائرة سرّتها. صعدت وراءها، كعبها المشوب بالحمرة، ورسغها الدقيق. حجرة أم سالم. المقعد في نفس المكان المواجه للسرير. كنت ما أزال مأخوذًا، استجابتي السريعة لدعوتها، وكأنَّني توقعتها. تسوي شعرها وتقول:

ـ أعددت عشاء. أمس أيضًا أعددته، انتظرت أن تأتي، الأكل برد. إن أردت أسخّنه.

ـ كنت في الإستاد وأكلت هناك. الوقت متأخِّر. وربما....

ـ لا متأخر ولا حاجة. أنام و أصحو. وهم في القصر يعودون مع الفجر.

اتخذت مكانها متربِّعة على طرف السرير. نهضتْ فجأة:

ـ آه. نسيت.

وضعت المنضدة الصغيرة بجواري. والبرّاد الكهربائي والأكواب:

ـ أعرف أنَّك تحب الشاي والسكر نص نص.

عادت إلى قعدتها:

ـ أنا أيضًا شاهدت المباراة. وشفت الأمير يسلِّم على اللاعبين. وأبو سالم. شفته؟

قلت إنِّي لم أره. إنما رأيت الأمير.

قالت: كان يجلس خلف الأمير بثلاثة صفوف يتكلَّم مع جاره. وطبعًا أم سالم لم تذهب. لا تمشي خطوتين إلا مستندة. لا أعرف لِمَ سافرت معهم. ستقضي كل وقتها في السرير بالفندق ومعها فاطمة تساعدها. قريبتها وصاحبتها من أيام المدرسة. هي التي أقنعتها بالسفر وستبقى معها في الفندق الوقت الذي تريده. لابد أنَّك زهقت من كلامي عنها.

ـ أبدًا.

ـ سأحكي لك. أنت بلدياتي وتعرف أسرتي. ستقول لي.

سكتت. عيناها تنظران إلى النافذة. فرع شجرة مورّق يمتدّ ساكنًا غير بعيد عن الزجاج.

ـ ما سأقوله لك. لا أعرف.

تبدو متردِّدة. وربما لم يعد لديها ما تحكيه عن الأخرى. قالت:

ـ أول مرّة أرى فرع الشجرة مورقًا. الشيش دائمًا مغلق. وربما رأيته ونسيت.

لم تكن في زهوها الذي شاهدته من قبل، ووجهها يميل للشحوب.

ـ آه. سأحكي.

وحكت.

ـ نادتني خديجة في يوم. اسمها قبل أن يأتي سالم. كنّا بالنهار.

قالت: البسي.

قلت: خير.

قالت: البسي. سأرسلك في مشوار.

لم يسبق أن خرجت. ولم يسبق أن أرسلتني في أي مشوار. وقفتُ متردِّدة. وهي تجهّمت.

دخلت حجرتي ولبست.

قالت: اذهبي إلى محل «كل النساء» أنا كلّمتهم بالتلفون، واختاري ستة قمصان نوم إيطالي وما يلزمها من ملابس تحتيَّة.

قلت: عندي كفاية.

قالت: عارفة. وأربعة أرواب خفيفة.

قلت: وعندي منها.

قالت: عارفة اذهبي. آه. وعطر فرنسيّ على ذوقك.

كان ذلك بعد عام من مجيئي للقصر. وذهبتْ. وعدت بالملابس.

تركتها في لفتها بحجرتي. هي لم تطالب حتى أن تراها. وفي المساء نادتني.

قالت: البسي القميص الورديّ، وما تحته بلون أسود.

أنا حائرة، ولا أفهم حاجة. وهي قالت وأنا في طريقي لحجرتي:

ـ وغيّري تسريحة شعرك.

وزادت حيرتي، وفعلت ما أرادت. قالت حين عدت إليها:

ـآه كده قرّبي.

عيناها تفحصانني من فوق لتحت. وأنا مكسوفة. القميص بحمّالتين رفيعتين، وقصير، عند الركبة، وهي قالت:

ـآه. حلوة وحلوة. هاتي كتاب الف ليلة وليلة.

أقرأ لها منه أحيانًا وجئت بالكتاب. قالت:

ـ حكايات السندباد. أي واحدة منها.

أراحت ظهرها. وأنا قعدت على طرف السرير جنب ساقيها، أخذت أقرأ لها. نظري يعني ضعيف شوية. أقرّب الكتاب من عينيّ، وأدقّق النظر في الكلام. ربما لذلك لم أنتبه لأيّ صوت حولي. صفحتان قرأتهما وفي الثالثة سمعت سعلة خفيفة ورائي. قفزت فزعة. الست خديجة ضحكت، وزوجها أيضًا ابتسم، كدت أهرول إلى حجرتي حين قالت بحزم:

ـ انتظري يا زاهية.

وانتظرت.

من ارتباكي لم أنتبه لما البسه إلاّ حين رأيت عين زوجها تختلس النظر إليّ. تراجعت لأدخل حجرتي. ظننت أنّها

مشْغولة عنِّي، وكانت تكلِّمه في حدّة عن أمور بينهما لا أتذكرها، ولا حتى سمعت ثلاث كلمات منها، ورأيت يدها تشير لي أن أنتظر.

وانتظرت.

بعد قليل ألقى عليها تحية المساء، واستدار ليخرج. تمهل لحظة وعيناه ترمقانني، نظرته صريحة بلا لف ولا دوران. وأنا انكمشت في نفسي. وخرج.

بعدها عرفت أنَّ الحكاية كلّها كانت من تدبيرها.

مرّت ساعة زمن. وكنت قرأت لها ثلاث حكايات من سندباد، فتحت عينيها وسألتني:

ـ رجع؟

ـ من؟

ـ ياسر. اسمه قبل أن يأتي سالم. ذهب في مشوار وقال إنَّه سيرجع.

وأنا التفت ورائي وهي، تشمَّمت الهواء ناحية الباب المفتوح، وقالت:

ـ آه . رائحـتـه . رجع . هاتي الحـقـيـبـة البنيّـة المربعـة من الدولاب .

أتيتها بالحقيبة . تصفّحت أوراقًا بها، ثم طوت أربعًا :

ـ خذيها إليه . ينتظرها .

وأنا استدرت إلى حجرتي . وهي قالت :

ـ أين ؟

ـ ألبس شيئًا .

ـ يكفي الروب .

ولبست الروب وعدت إليها، واكتشفت في وقفتي أمامها أنَّ الروب أيضًا قصير .

قلت لها إنَّ هذه الملابس غير ما اخترته في المحل .

قالت : حلوة عليك .

ـ لم أخترها .

ـ استبدليها فيما بعد . أو هاتي غيرها .

أشرت لساقي العاريتين . قالت وفي صوتها نبرة غضب :

ـ ساقاك جميلتان . ومن يراك ؟

حنيت رأسي وسكت. قلت لنفسي إِنَّها هواجس، وربما أكون بالغت قليلاً.

أخذت الأوراق منها وخرجت.

مكتبه مضاء. نقرت على الباب قال:

ـ أدخل.

ودخلت.

يجلس خلف المكتب يتكلَّم في التلفون، أشار لي أن أغلق الباب ورائي. مددت له الأوراق. تجاهلها وأشار لي بالجلوس. جلست على مقعد أمام المكتب.

انتهى من مكالمته واستدار وجلس على المقعد أمامي. كدت أقف. أشار لي أن أظلّ في مكاني. أخذ الأوراق، تصفَّحها سريعًا مغمغمًا:

ـ طيِّب. الأمر لله. وأنت؟

ـ أنا؟

ـ أخبارك؟ أعرف أنَّ خديجة صعبة.

ـ لا صعبة ولا حاجة.

- يعني مبسوطة؟

- مبسوطة والحمد للّه.

- أي حاجة أخبريني. حتى لو بيني وبينك وأنا أحلُّها.

- كتّر خيرك.

وقفتُ، وهو وقف. مدّ يده كأنما يزيح شيئًا عن شعري، ووجدتها على خدّي. حاولت. تملّصت. دفعته. رجوته، وهو لا يفلّتني. على قد ما قدرت. وكان اللي كان.

سكتتْ، منحنية على نفسها، ويدها المنقبضة تضغط على فمها. أنظر إليها غير مصدِّق. كثيرات حدث لهن ما حدث لها ولا يحكين أبدًا. وهي؟ ما يجعلها تحكي لي ما حكت؟ وجهها مكفهر مغضّن بالألم، وكتفاها منطويتان. أيمكنها أن تتسلّى بهذا الكلام؟ كنت في مقعدي جامدًا، لا أجد في نفسي رغبة لمواساتها، أو حتى قول كلمة تخفِّف عنها.

قالت في صوت خافت:

- ربما تقول ولم تحكِ لي ما لا يصح أن يحكيه أحد. ستعرف. أكثر من مرة أحاول أن أحكي لك وأجدني أحكي عنها. كل كلمة وحركة سأخبرك بها آه. سأحكي كل شيء.

سكتت قليلاً وهمست:

ـ كل يوم أقول لنفسي لابد أن يعرف غيري ما حصل.

سكتت مرة أخرى، وقالت:

ـ خرجت من عنده. وحالي حال. ما أذكره أنَّني جمعت في يدي الروب وما خلعه من ملابسي، وكنت حريصة عليها أخشى أن يقع منها شيء. ضممتها لصدري.

صعدت السلّم، ومشيت إلى حجرتي. لم التفت ناحية سريرها، قبل أن أدخل الحجرة انتبهت. لم أسمع صوت تنفسها الثقيل عندما تكون نائمة. بطرف عيني لمحتها راقدة، تتظاهر بالنوم. طوال الوقت كانت صاحية تنتظر عودتي. رقدت في الفراش كما أنا، ورحت في النوم. أيقظني النور يلحّ على عيني، كانت منحنية فوقي. هي التي لا تتحرَّك تحرّكت. استندت على كل ما يقابلها كما تفعل أحيانًا حتى وصلت إلى حجرتي. هببت لأقعد وأنا دائخة، يدها الثقيلة ردتني للرقاد. أعرف أنَّ قميصي مكرمش، وشعري منكوش، كانت تسويه بيدها. ملامح من الرضى تبدو على وجهها. وأنا حائرة أنظر إليها. كانت في أحسن حالاتها، تحسَّست يدها خدّي، وتوقفت على شفتي، مرت بإصبعها فوقهما وابتسمت:

ـ غداً نتكلَّم . والآن نامي .

ـ أوصلك ؟

ـ كما جئت أعود . نامي .

في استدارتها لمحتْ ما رميت به من ملابس جنب السرير عند عودتي، تأمَّلتها قليلاً واتّجهت إلى الباب مستندة على الحائط .

* * *

لم تنادني كالعادة في الصباح الباكر. تأخَّرتُ في النوم. وجدتها في الفراش والفطور على المنضدة. استقبلتني ببشاشة على غير عادتها، وقالت:

ـ انتظرتك لنفطر معًا.

لا أفهم ما يجري. أنظر إليها ولا أدري ما أقول.

أخذت حمّامي، وجلست أفطر معها. بعدها قالت:

ـ نشرب القهوة هناك.

تقصد السرير.

مدّدتها. ووضعت الشلتتين خلف ظهرها، وجلستُ في المقعد أعد القهوة.

قالت: والآن إحكي لي.

ـ أحكي إيه؟

ـ إحكي ما حصل.

ـ أنت تعرفينه.

ـ أسمعه منك.

ـ أنت تعرفين.

ـ إحكي كيف تقدّم لك.

وحكيت.

تسأل وأرد عليها، وتستفسر عن كل حاجة، ولا حركة صغيرة إلا وسألت عنها، حتى ما كان يهمس به من كلام وكنت في حالة لا أتذكَّرها إلاَّ قليلاً. وهي مشرقة الوجه. الحقيقة خفتُ. أرعبني ما تفعله وتقوله، وأقول لنفسي لأهدئها: «وماذا سيحدث لك يا زاهية أكثر مما حدث». والخوف جعلني أستهين بها وبكل حاجة، قلت لنفسي «وآخرتها إيه!».

حكيت لها. لم أخفِ شيئًا، ولم أخجل من شيء. تقول:

ـ حاولي. ستتذكرين. حاولي.

وأتذكر وأقول لها.

تغمغم من لحظة لأخرى وأنا أحكي: «هو ياسر. هو. لم يتغيَّر».

وسألتها عما كان يشغلني:

ـ أنت رتّبت كل ما حصل؟

ـ رتبت آه. إنما مش كلّه.

ـ والملابس. أنت اخترتها؟

ـ آه اخترتها. ذهابك كان ليعرفوا مقاسك.

ـ وغير ذلك؟

ـ كل ما فعلته أنَّني رتّبتُ ليراك. غير ذلك لا يد لي فيه. شوفي. سأقول لك.

شربت قهوتها في رشفتين، ومدّت لي الفنجان الفارغ.

أراحت ظهرها وحكتْ.

* * *

قالت إنَّها منذ رقادها في الفراش وهو يخفِّف من صعوده إليها، حتى جاء يوم ولم يعد يصعد، لا يأتي إلاَّ حين أرسل له. ودائمًا يكون متعجلاً. ذاهب هنا. ذاهب هناك. عمل في المكتب. وأجد له العذر، من يرغب امرأة في حالتي. أنا أيضًا لم تعد عندي نفس. المهم لم يعجبني أبدًا أن تكون له شقة في الضاحية لعلاقاته. وكل يوم واحدة شكل. يلتقطها في طريقه، ملاهٍ. مستشفيات. ومحلات، يجدهن دائمًا أمامه. هو وغيره. أعرف ياسر. في سنوات زواجنا الأولى لم ينظر لواحدة غيري، وكان صاحب ذوق، ونفسه حلوة. ما غيّره؟ يرضى بأي واحدة، وربما ينام معها مرّة ولا ينام الأخرى، لا أعرف. أشكالهن لا تسر. لا جمال، ولا أي شيء. وماذا تنتظرين ممن يتنقلن من رجل لرجل. الخادمة هناك في الشقة تأتيني بصور تلتقطها لهن في الخفاء. وأراهن وأتعجب، وأشفق عليه، هو زوجي يا زاهية، ولا أرضى له ذلك أبدًا، وشفت معه أجمل أيام عمري. من حقِّه

أن يتزوَّج أخرى، ولا يريد أن يفعلها معي. مازلت أنا مهما جرى لي حبيبته وكل شيء. فكّرت وفكّرت. قلت لو عرف واحدة فقط، واحدة تملأ الفراغ الذي تركتُه عنده، واحدة أختارها له، فهو لن يسعى لذلك. واحدة تجعله لا يحتاج لأخرى. وأنت كنت معي ولم أرك. عام كامل ولم أرك. ثم رأيتك أمس. كنت مثلك قبل أن يحصل لي ما حصل. نفس عودك وجمالك، وطبعك الحلو المريح. قلت لن يجد أبداً مثلك، ولن يسعى لأخرى وأنت معه. ياسر وأعرفه. طيِّب وإبن حلال. ويشيلك بين عينيه. كان هنا أمس، ورأيت نظرته إليك، ذكَّرني بنظراته لي حين كنَّا نلتقي قبل الزواج، وقلت لن أجد له أبداً واحدة غيرك بها كل ما أريده. هذا كل ما في نفسي قلته لك. آه. أنبِّهك لشيء. لا تخبريه أبداً أنَّني أعرف ما بينكما. هو رآك بنفسه واختارك. ولا تذهبي إليه. دعيه يأتي إليك، وأنا أنام مبكّراً. وشيء آخر، أرفضي كل ما يعطيه لك مهما حاول. أعرف أنَّه ليس من طبعك أن تقبلي. ما أكثر ما عرضت عليك وكنت ترفضين. هذا كل ما عندي قلته لك.

أسمعها ولا أصدِّق نفسي، أقول في سري ما جرى في الدنيا، أيمكن أن تفعل واحدة مهما كان حالها ما تفعله؟ القصد. سمعت منها كل ما لا يخطر على بال. وطول النهار لا

تريدني أن أفارقها. أقعدي. وأقعد، إقرئي حكايات السندباد. وأقرأ. وأحسّ بعينيها على وجهي تقول:

ـ فاكرة يا زاهية. لابد أنّني حكيت لك. حين بكيت على صدر الولد. وتسألينني عن اسمه. وأقول لك لا أذكره. إسمه زايد. لم أحب أن أذكر اسمه. يضمّني وأنا أبكي، ويده على ظهري، لا أنساها للحظة. سنوات. وسنوات. أتزوَّج. ولا أنساها. تهفّ على بالي، لا أعرف كيف، أستعيدها وكأنَّها من يومين. ذراعه حولي. ووجهي على صدره. أبكي وأمسك به في شدّة. أخشى أن يفلتني. ولا أريد من الدنيا غيره. آه. أيام.

صدعت رأسي بحكايتها والولد. تسكت، تسكت ثم تحكيها.

في الليل، وكنت قرأت لها صفحات من ألف ليلة، وجاءها النوم:

ـ مدديني.

ومدّدتها.

وقبل أن أدخل حجرتي قالت:

ـ خذي حمّامك قبل النوم. وافتحي الدولاب. الرفّ الثالث. العطور. علبة عليها إسم فلورنسا.

أخرجت العطر من الدولاب، واستدرت إليها. وجهها للناحية الأخرى. قالت:

- خذيها. عمرها عندي تسعة أعوام. احتفظت بها ليوم أستردّ فيه عافيتي. إن كان لا يزال كما عرفته سيأتي الليلة لحجرتك.

لم تلتفت. ولا أيّ حركة. وكأنَّها لم تقل شيئًا غريبًا. استمرَّت في رقدتها كما هي وأنا في وقفتي والعطر بيدي لا أريده. خشيت إن فتحت الدولاب لأعيده أن ينبهها الصوت وتسمعني كلامًا لا أحب سماعه. تركته على الكومدينو وقصدت حجرتي. أقول لنفسي إنَّه مجرد كلام تقوله، وأنَّه غير معقول أن يصعد ويمرّ بها إلى حجرتي. قبل أن أصل جاءني صوتها:

- أخذت العطر؟

رجعت وأخذته.

سكتت زاهية.

بشاير الفجر تلوِّح في الأفق. ربما لمحتني أنظر إلى النافذة. قالت:

ـ آه. سـرقنا الوقت. حـكيت وحـكيت. ولـم أقل لك مـا أردت أن أقوله.

مستندة برأسها للسرير، وجهها المرهق يميل جانبًا، الهالتان حول عينيها، لونهما الداكن.

سألتني إن كنت سآتي؟

وقلت إنَّني سآتي.

وخرجتُ.

* * *

غبشة الفجر.

أنعشني الهواء البارد. رغبت في المشي. ومشيت. أستعيد ما قالته. وأجد حكايتها تفقد بريقها. أقول إنَّني لابد نسيت شيئًا. وأنا معها كدت أميل لتصديقها ووجهها يتلوَّن مع ما تحكيه. وتقول «انتظر. ستعرف» وماذا ستقول بعد كل ما قالته؟ وحدها هناك في القصر. لو أرادت ستتجوَّل في حجراته العديدة، تنتقل من شرفة لأخرى، وربما تسير قليلاً بين الأشجار في الحديقة وهي تضمّ الروب حول جسدها. المقعد الهزّاز هناك في الحديقة، حتى لو رأته، ستمرّ به ولا تفكِّر في القعود. وحمّام السباحة أيضًا، الذي يجذب المستخدمين في غيبة أصحاب القصر، لا يأتي على بالها. التلفزيون؟ لم تذكره أبدًا في حكاياتها، غالبًا لا تراه، تمشي، تظلّ تمشي في ممرات الحديقة حتى ينالها التعب. وربما تكتفي بأروقة القصر. أتخيَّلها في القاعات الواسعة، تتحاشى المقاعد الضخمة، والمناضد الصغيرة

المتناثرة. لم تحكِ أبداً عن سيرها داخل القصر، وربما لم يخطر لها أن تحكي. وما أهميَّته؟ تدخل وتخرج، لا أحد غيرها، تفتح الحجرات، نظرة عابرة وتمضي. ليلة بعد أخرى. ينتهي بها التجوال إلى الحجرة التي اعتادت عليها. تجلس بالمقعد الفوتيه المواجه للفراش، وتتراءى لها أم سالم في رقدتها، تستعيد ما حكته لها، عام بعد عام وهي تحكي لها. تستمرّ في قعدتها طويلاً، وماذا لديها لتفعله؟ متى تنام؟ متي تصحو؟

أنتبه أثناء مشيي أجدني أمام قصر «أبو سالم» وألمحها في وقفتها بالشرفة، متَّكئة بكوعيها على السياج. وقفت أنظر إليها. بادلتني النظرات، ظلّت في وقفتها ساكنة. ألمح القادمين لصلاة الفجر في المسجد المجاور، وامضي إليهم.

* * *

وقفت مع المصلّين خلف الإمام. أغلبهم يتثاءبون، كانوا قادمين من الاحتفالات في الإستاد وغيره. أماكن أخرى بالأحياء القديمة والضواحي سمعت أنَّه يقام بها احتفالات أقل صخبًا مما يجري في الإستاد. في عودتهم يختارون المساجد القريبة من مكان إقامتهم حتى يسرعوا للرقاد.

أوقفنا الإمام بعد انتهاء الصلاة. قال:

ـ دعاء.

وأعطانا ظهره، رفع كفيه وظلَّ صامتًا حتى سكنت حركتنا.

ـ «اللهم انصر فريق الإمارة»

ونردِّد وراءه: آمين.

ـ اللهم كلِّل هاماتهم بالنصر.

آمين .

ـ وأعدهم لنا سالمين.

آمين.

* * *

انشغلت مع الفلبينيين في تشذيب حديقة القصر. قصصنا الكثير من فروع الأشجار، وسوّينا الحشائش، وغسّلنا درجات السلّم الخارجيَّة والداخليَّة، وأفرغنا حمّام السباحة ودعكنا جوانبه وأرضيته. أخذ ذلك منّا ثلاثة أيام. نعمل من الظهيرة ـ وقت يقظتنا ـ حتى المغرب موعد ذهابنا إلى الإستاد للسهرة. الباكستانيَّات جمعن الفرش وأخرجنها للشمس وكنّ ينادين علينا حين يعجزن عن حمل شيء منها.

أتجنَّب السير أمام قصر «أبو سالم» وربما كنت أتهيَّب ما سأسمعه. وانشغلت بعد ذلك بالمساعدة في ترتيب المستودعات. وكان موعد المباراة التالية يقترب.

أقضي السهرة في الإستاد متنقلاً من مجموعة لأخرى، وشاركت فرقة المزيكة المصريَّة، ألبسوني البدلة الكاكي وطربوشًا أحمر، وعلّقت الطبلة الكبيرة فوق بطني «بم. بم. بم». نتجوَّل وسط التهليل بأرض الإستاد، وشربت

« العرقسوس » مع أعضاء الفرقة في فترة الراحة، يقوم بتوزيعه مصري يحمل إبريقًا ضخمًا على جنبه تطلّ من فوهته كرة الليف الحمراء والصاجات في يده، والأكواب معلّقة بحامل على جنبه الآخر، وإبريق صغير بيده ممتلئ بالماء يشطف به الأكواب عقب الإستخدام. يعلّق فوق أذنه عود ريحان، أوراقه صغيرة خضراء. يذكّرني ببائعي العرقسوس بالسيدة زينب والحسين في القاهرة. وانضممت إلى تجمع أردني يتناول « الكبسة » . كانوا يحيطون بصينيّة ضخمة ممتلئة في شكل هرمي بالأرز المخلوط بقطع اللّحم الضأن. كنت مارًّا وتمهلت أرقب البخار يتصاعد كثيفًا من الأرز عقب إفراغ الحلل بالصينيّة. جذبوني من ذراعي وأفسحوا لي مكانًا، نأكل بأيدينا، نكور الأرز الساخن وندفع به إلى أفواهنا.

فاجأنا تسرب البترول من الأنبوب وكنّا نرتّب لمشاهدة المباراة بعد يومين. تجمّع المستخدمون أمام المخافر لاستطلاع الأخبار وتقديم ما يمكن من مساعدة.

كنت مع آخرين واقفين، وخرج إلينا الهنديّ القائم بأعمال المخفر القريب من القصر. أخبرنا أنَّ الفنيين انطلقوا إلى مكان العطب في عمق الصحراء، واحد من أنابيب التصدير إلى أوروبا. وهو في انتظار ما يطلبونه.

قعدنا حول المخفر. الشمس توشك على المغيب، وعندما غابت، خرج إلينا القائم بأعمال المخفر، قال إنَّ كل من معه سيّارة يصحب من يريد الذهاب، فثمّة وصلات سيتمّ إخراجها، وإصلاحها أو استبدالها، ونكون تحت أمر الفنيين هناك.

انطلقنا. ثلاث طرق مزدوجة ممهدة، تمتدّ طويلاً داخل الصحراء. مئات السيّارات في صفوف متوازية، أوقفَنا بعض الفنيين على بعد من مكان العطب. عدد من الأوناش سبقتنا وأجهزة ومعدّات الحفر، وكشّافات قويَّة. أصوات الموتورات تهدر هناك.

جاء فنيّ إلينا مرّتين. صحب عشرين واحداً، ثم عشرة.

قعدنا على مقدمة السيّارات ننتظر.

أخرجوا سبع وصلات، جرى استبدالها. الكثيرون منّا لم تُطلب مساعدتهم، كنت منهم، وظللنا في قعدتنا غير بعيد من موقع العمل.

مع طلعة النهار كان قد تمَّ الإصلاح، وأعطى كبير المهندسين الأمر بإعادة الضخّ، وبعد ساعة زمن أعطى الأمر بالردم.

بقينا بجوار سيّاراتنا حتى انطلق الفنيون عائدين، وانطلقنا وراءهم.

قضينا أغلب النهار نائمين.

* * *

كنت أستعدّ للذهاب إلى الإستاد لمشاهدة المباراة. الفلبينيون والباكستانيّات سبقوني. تواعدنا على اللِّقاء عندهن حيث سيقمن بشواء سمان وحمام.

أخرجت السيّارة، ونزلت منها لأغلق البوّابة، خطر لي أن ألقي نظرة على القصر المجاور. ترددت. هي وحكاياتها، أجدني تائهًا معها، أصدِّقها ولا أصدِّقها، وأتقلَّب في انفعالات لم أجربها من قبل، وقد دخلت حكايتها منحنى لا يطمئن. ولو اقتصر الأمر على معاناتي وأنا أستمع إليها لتحمَّلت، غير أنَّه نذير ينبهني إلى أن أتوقف.

كنت ما أزال عند البوّابة، وقلت مجرد نظرة ألقيها وأنا في طريقي، ولو كانت بالشرفة، فلن تراني وأنا داخل السيّارة.

تحركتُ على مهل. أقترب من واجهة قصر «أبو سالم». ألمحها بالشرفة، وأجدني أتوقف بالسيّارة، وأنزل منها، وأراها

تعتدل في وقفتها، تشير بيدها إشارة خفيّة على غير ما اعتادت، وكأنَّها لا تهتم بأن يراها أحد.

توجهتُ إلى البوّابة، والممر، وسلالم القصر حيث تنتظرني. تبعتها إلى الداخل، أغلقت الباب وواجهتني:

ـ أكثر من يوم وأنا أنتظرك. خشيت ألا تأتي. وألوم نفسي. وأقول ربما أغضبتك.

هيئتها مبعثرة خلافًا لما توقعت. شعرها أشعث علقت به شذرات من خيط. والروب كالح بأزرار أماميَّة وتحته جلباب بيت، ظهرت ياقته من فتحة الروب وحول طرفها شريط دانتيل بلون داكن.

قلت: مشاغل كثيرة.

ـ مشاغل؟

نبرة عتاب بصوتها. رمقتني لحظة وتقدمتني.

المقعد الفوتيه. جلستُ وهي جلست أمامي على طرف السرير وجمعت ساقيها تحتها. وجهها شديد الشحوب.

قالت: لم أُعد عشاء. إذا كنت تريد..

اعتذرت وقلت إنَّني سأخبرها إذا احتجت.

قالت مبتسمة خفيفًا:

ـ اقتربت عودتهم.

ـ من يعرف؟ لو فاز الفريق في المباراتين القادمتين تطول إقامتهم.

ـ ولا حتى تلفون منها. مجرّد أن تسأل. وكانت هنا لا تتحمَّل أن أغيب عنها لحظة ولا تسمح لي بمفارقتها إلاَّ وقت النوم. إنما. يعني. فيم سؤالها؟ بعد اللي حصل فيم سؤالها؟ آه يا زاهية نسيت.

نهضت، جاءت بالمنضدة الصغيرة وأدوات الشاي. وقالت:

ـ الواحدة لا تختار ما تنساه. طول اليوم أنسى عمل كيت وكيت وأبحث عن الحاجة. وأين تركتها؟ كنت غير ذلك. الكل كان يشهد لي. ويسألونني عمَّا تاه منهم. وحدها أم سالم التي تفوقت، راقدة. ولا تتحرَّك إلاَّ للحمَّام. وتعرف مكان كل حاجة. وعددها. ولونها. ويومًا بعد يوم رحت أعتمد عليها فيما أنساه. ولا يفوتها شيء. أول مرّة يأتي زوجها لحجرتي. ولا كان على البال. وهي من أخبرتني. ربما حكيت لك. قالت: خذي حمَّامك قبل أن تنامي. وعطر من فلورنسا خذيه، والبسي

القميص الستان بلون القرفة، وأنظر إليها. راقدة توشك على النوم، وليس بعينيها رائحة النوم. أدخل حجرتي. لن أفعل شيئًا مما تقوله، ويرنّ الجرس بإلحاح فوق رأسي. وأذهب إليها تقول:

ـ لم أرك تأخذين حمَّامك.

ـ سآخذه.

ـ خذيه هنا ـ وأشارت لحمَّامها ـ به عطور استحمام.

وأخذت الحمَّام.

عدت لحجرتي ورقدت، النوم لا يأتي. أخشى لو جاء. أنهض من رقدتي، وألبس القميص الستان الذي اختارته. لو عرفتْ أنَّني لم ألبسه! والعطر الفلورنسي. أعود للسرير. وفيم أفكر؟ الأمر غريب من أوله لآخره. ولا أعرف رأسي من قدمي. لو أغلقت الباب من الدّاخل بالترباس؟ ولو كان صحيحًا ما تقوله وجاء، سيحاول مرّة مع الباب ولن يحاول أخرى. يعرف أنَّها تصحو من أقل صوت غريب. وماذا تقول أو تفعل بي حين تعرف أنَّني أغلقت الباب؟ لن أسلم منها أبدًا.

وجاء. جاء دون صوت. حتى الباب لم أسمعه يُفتح أو يُغلق. فقط ضوء خافت تسرَّب من الحجرة الأخرى بدَّد العتمة لحظة واختفى.

وقف عند رأسي. مدَّ يده إلى وجهي، أردت أن أصدّه. ولم أصدّه. بعدها تمدَّد بجانبي وراح في النوم. وأنا بقيت صاحية .لم ينم طويلاً. نصف ساعة وقعد. ونصف ساعة أخرى وخرج. وأنا بقيت صاحية. متى نمت؟ أيقظتني الشمس تدخل من النافذة. كنت نسيت أغطيها بالستارة.

وجدتها تجلس إلى المنضدة، وأواني الفطور مغطاة فوقها، وتقرأ في جريدة. أول مرّة أراها تقرأ جريدة، استقبلتني ببشاشة:

ـ قلت أتركك تأخذين راحتك في النوم. خذي حمَّامك. سأنتظر لنفطر معًا.

وأخذت حمَّامي.

أشارت لمقعد أمامها وجلستُ. تناولنا فطورنا في صمت. أحسّ بعينيها تختلسان النظر لوجهي.

وعدت إلى حجرتي لأرتِّبها.

بعد قليل استدعتني بالجرس. أعرف ما تريده، انتظرت حتى هدأت نفسي وذهبت إليها، وهي مالت قليلاً على جنبها لتواجهني:

ـ جاء كما قلت لك؟

ـ آه. جاء.

ـ ومالك غاضبة.

ـ أسئلتك.

لا أدري كيف واتتني الجرأة لأكلِّمها بهذه الطريقة. وهي ضحكت:

ـ أسأل في أمور لا تخصّني؟

ـ لم أقل ذلك.

ـ إنما أردتِ أن تقوليه.

لم أردّ عليها. قالت:

ـ اعملي قهوة وتعالي لأكلِّمك.

عملت القهوة وشربناها. قالت:

ـ يا زاهية. أنت الآن منِّي. ما يجري عليّ يجري عليك. ما وددت أن أفعله تفعلينه أنت. وما أسألك عنه إلاَّ لأطمئنّ عليك وعلى نفسي. أرى من عينيك ووجهك أنَّك بدأت تميلين إليه، وكلها يومين ثلاثة ويأتينا خبر أنَّه أغلق الشقة في الضاحية أو باعها. وعاد كما كان. ياسر الذي عرفته دائمًا. أخبريني بما قاله لك وهو معك.

فوجئت بسؤالها وتردَّدت. وهي ابتسمت مشرقة الوجه. طمأنني ذلك قليلاً. وقلت لها ما تذكَّرت من كلامه. كانت تردّد ورائي:

ـ نفس ما قاله لي من قبل. وكنت أخشى أن يغيِّره من عرفهن. مازال كما هو. ونام مباشرة؟

ـ بعدها بقليل.

ـ وأعطاك وجهه؟

ـ آه.

ـ وذراعه عليك؟

ـ وذراعه عليَّ.

ـ هو ياسر. وعند خروجه؟

ـ آه. عند خروجه؟

ـ مال عليك وكلَّمك؟

ـ مال عليَّ وقبَّلني.

هو لم يقبِّلني. قلتها من عندي. أردت وقد فاض بي أن أؤلمها. ظننت ذلك. هي ابتسمت. ترمقني في صمت وظلٌّ خفيف من الشك في عينيها. قالت:

ـ لم يفعلها معي. القصد. ما أردناه حصل.

تقصد ما أرادته هي. لم أرغب في ذلك ولا سعيت إليه. وكل همِّي كيف أخرج من الحكاية بدون مشاكل. كانت تتأمّلني وقالت:

ـ كنت ناوية أقول لك حاجة. إنما بعد اللي سمعته وشفته لا ضرورة.

ـ أيّ حاجة؟

ـ أنت تميلين إليه. ومادمت تريدينه ستفعلين من نفسك. كل واحدة وما تراه.

وكأنَّها تتسلَّى بي وأنا في قبضتها، وأحسّ أنَّ الزمام سيفلت منِّي. أقول:

ـ وما هو الذي سأفعله من نفسي؟

وهي ابتسمت وقالت:

ـ بدأت تغضبين بسرعة. لا أسعى للإساءة إليك. ولا يخطر على بالي. كل ما في الأمر أردت أن أنبِّهك لشيء في طبعه.

استعدت هدوئي. وبقيت صامتة. وهي قالت:

لا تتمنَّعي عليه. البعض يظنّ حين ترى رجُلها مقبلاً عليها أن تتمنّع لتزيد من تعلُّقه بها. وأحيانًا تبالغ. مع ياسر يأتي الأمر بالعكس. فعلتها مرّة معه. انصرف من الحجرة ولم يرجع. ولا دخلها لما يقرب من شهر. وعندما رآني أتقرَّب إليه، لان وعاد كما كان.

سكتت زاهية.

تمسح بكفّها الروب عند ركبتها. بدا أنَّه ما زال لديها ما تحكيه، وربما لمحتني أختلس النظر إلى ساعتي، قالت في وهن:

ـ اقترب موعد المباراة على ما أظنّ.

قلت إنَّه اقترب.

قالت: أنا أيضًا تعبت. لا أعرف ما جرى لي. أقلُّ جهد هذه الأيام يقعدني.

كنت واقفًا. ظلّت في جلستها مطرقة. واستدرت خارجًا.

* * *

أنعشتني الضجّة في الإستاد. المدرّجات امتلأت، نساؤهم في الفراغات بين الصفوف وبجوارهن الأواني الممتلئة بالأطعمة. وفي الملعب مجموعات الغناء والرقص يجري استبدالها من حين لآخر. وكان هناك من يعدو حول الملعب رافعين فيما بينهم قماشًا بألوان مختلفة يخفق ويلمع في الأضواء القويَّة.

الشاشات العملاقة على جوانب الإستاد تذيع الإستعدادات للمباراة.

قلت ألحق وأتناول شيئًا قبل بدئها.

تردَّدت حين لمحت العديد من الباكستانيَّات يتجمَّعن في الفراغ بين الخيام، العاملات في القصر يتصدَّرن القعدة. واحدة تشير لي، شبَّت على ركبتيها ولوحت بذراعيها. لمحت ريشيم بينهن، أمامهن امتدَّت صواني الطعام، حولها باكستانيُّون. الفلبينيون الثلاثة ضائعون بينهم. أفسحوا لي مكانًا، كمية

كبيرة من السمان والحمام وضعت أمامي. اتجهت نظراتي إلى ريشيم. لم تنتبه لوجودي، تابعت مسار نظراتها، زوجها بالقرب منها بين آخرين. يتبادلان النظرات وابتسامة صغيرة خفية، تدفع إليهم بحبات السمان، وتجرف الأرز بخلطة المكسّرات نحوهم. تمدّ ذراعها بزجاجة التوابل نحوه، يمدّ واحد آخر يده قاطعًا الطريق ويتناولها، وتظلّ عيناها في عيني زوجها. هما على ما يبدو توصَّلا إلى تفاهم: أن ينتظرا ويبقى ما بينهما خفيًّا، ويكتفيان باللقاء وسط الآخرين. كان في الإعلان خطر كبير.

انتهت المباراة بهزيمة الفريق، وحلَّ صمت كئيب. العيون ظلّت وقتًا عالقة بالشاشات غير مصدّقة، وأطفئت الشاشات، وبعدها الأنوار القويَّة، ظلّت الأنوار الضعيفة تضيء أرض الإستاد. توهجت النيران المتناثرة بين الخيام، وأظهر البعض استياءهم من ضوئها الساطع في الظلمة، وراح أصحابها يطفئونها واحدة بعد الأخرى.

الحديث يجري في همس. وهمدت الحركة داخل الإستاد وخارجه. الوقت مبكِّر على النوم. رغم ذلك تمدَّد الجميع وغلبهم النعاس.

* * *

كان الأمل أن يفوز الفريق في المباراة القادمة وبذلك يتاح له الصعود للتصفيات الثانية. شاهدت المباراة وكنت مشدوداً كالآخرين في الإستاد، شاهدناها في صمت. بلا احتفالات، حتى الطعام الذي جاءوا به كان جافًّا، جبن، مربى، بيض مسلوق، وزجاجات المياه.

انتهت المباراة بالتعادل. ونهض الجميع ليناموا في البيوت. لا رغبة في التسلية أو المرح، رغم ذلك كان ثمَّة أمل يلوح لو انهزم فريق دولة المغرب في مباراته القادمة مع البرتغال، فستتاح بذلك الفرصة لفريق الإمارة ليصعد للتصفيات.

كانت المناقشات تدور خلال اليومين السابقين للمباراة حول مستوى فريق المغرب، والمرّات التي فاز فيها، وأجمع الكثيرون أنَّه غير مؤهَّل للفوز، خاصة أنَّ نجمه الكبير لن يشارك في المباراة لعطب بركبته.

في صلاة العشاء ـ الليلة السابقة للمباراة ـ وقفنا خلف الإمام. وبعد الصلاة طلب البعض منه أن يقوم بالدعاء. انتفض:

ـ أدعو لمن؟

كان باكستانيًّا أصلع. تقاطيع وجهه جامدة. وقال واحد:

ـ ندعو بهزيمة فريق المغرب.

ضاقت جبهة الباكستانيّ، وقال:

ـ لا يجوز الدعوة بإساءة.

ـ ليس بها أيّ إساءة. مجرّد هزيمة في اللعب.

ـ لا يجوز أن ندعو اللّه لذلك.

ـ ندعو بأن يساعد فريق الإمارة للوصول إلى التصفيات.

ـ أهذه دعوة للّه. كما لو كنت تدعوه أن يساعد فلانًا للحاق بالحافلة أو الذهاب للبيت.

ـ وماذا لو دعونا لفريق البرتغال بالنصر.

ـ أستغفر اللّه. دولة غير مسلمة وتدعو لها.

ـ بها مسلمون.

ـ قلة. ولا تنس أنَّها كانت دولة استعماريَّة. أذاقت الأفريقيين الذل والهوان.

ـ ومالنا وأفريقيا.

كانوا يحاصرونه ويسدُّون عليه الطريق للخروج. وقال واحد:

ـ أوجد لنا الحلّ. نريد أن ندعو للهّ.

أطرق الباكستانيّ مفكِّرًا، ثم قال:

ـ نخرج من الجامع. وندعو كما نشاء.

وردّ هنديّ كان يقف متحفِّزًا:

ـ اللَّه الذي سنتوجَّه له بالدعاء من الجامع هو نفسه في الخارج.

وردّ الباكستانيّ منفعلاً في شدّة:

ـ هندي أحمق. هذا مكان مقدّس.

وقال الهنديّ: لن أصلِّي وراء إمام غبي مثلك بعد اليوم.

انتهى الأمر بالخروج إلى الشارع.

ووقفنا وراءه في ثلاثة صفوف. قبل أن يتأهَّب للدعاء التفت خلفه كعادته في الجامع قبل الصلاة، وبدا كأنما سيقول ما يقوله دائمًا «سوّي الصفوف».

ثم عدل عن ذلك، ورفع يديه بالدعاء:

ـ اللهم إهزم فريق المغرب.

ونردِّد وراءه: آمين.

ـ اللهم إهزم فريق المغرب شرّ هزيمة.

آمين.

ـ و اعمهم عن المرمى.

آمين.

وتفرَّقنا.

* * *

كان الإستاد خاليًا يوم المباراة. شاهدها المستخدمون في البيوت والمقاهي ومواقع العمل. وقد ذهبوا إليها حاملين عددًا من أجهزة التلفزيون.

الموقوفون لم يذهبوا هنا أوهناك. فضّلوا القعود خلف المخافر، مستمتعين بالشمس، وسمح لهم القائمون بالعمل بمشاركتهم المشاهدة. أخرجوا التلفزيونات إلى الساحة المسوّرة أمام المخافر، وجلس القائم بالعمل على مقعد كبير حملوه له من الداخل، ومدُّوا حصرًا وراءه، وقعدوا. وكان هناك من يعدّ لهم الشاي، غير أنَّهم لم يجدوا الوقت ولا الرغبة في تناوله. فقد حقَّق فريق المغرب الفوز من بداية المباراة، وعزفوا عن متابعة الشوط الثاني، سحبوا الحصر إلى خلف المخفر لينعموا بلحظات أخيرة من الشمس قبل أن يحجبها الغروب.

مرّة أخرى ساد الصمت. عاد الجميع إلى بيوتهم، وخلت الشوارع، و أغلقت المقاهي والمحلات.

ظهر المحلِّل الرياضي بالتلفزيون، قال إنَّ الفريق بذلك يخرج من مباريات كأس العالم. خرج وهامته مرفوعة، أدَّى واجبه على أحسن ما يكون. وكان أداؤه أفضل بكثير من الفرق الفائزة. شهد بذلك أكثر النقّاد الرياضيِّين. ولكنَّه سوء الحظ، وهو أمر وارد دائمًا في مباريات الكرة، ولا تسلم منه كبرى الفرق في العالم، ويبقى أن نقول إنَّها المرّة الأولى التي يصعد فريق من الشرق إلى مباريات كأس العالم، وهذا في حدّ ذاته نصر كبير.

بعد قليل عادت الأنوار القويَّة للشوارع، وفتحت المحلاّت والمقاهي، وخرج الكثيرون لقضاء السهرة كما اعتادوا، وارتفعت الأصوات. الضجة المألوفة.

في الليل أعلنت إدارة البلديَّة اعتبار يوم غد يومًا للنظافة، وعلى الجميع تنظيف البيوت والقصور من الخارج ليعود لها رونقها، وغسل الأشجار المحيطة بها، وما يتواجد في الشوارع بالقرب منها، وجمع النفاية في أكياس تترك على النواصي.

في الصباح. كنت والفلبينيون قد غسلنا القصر من الخارج بخراطيم المياه، وقمم الأشجار والأسوار، وخرج إثنان من الفلبينيين وسحبا معهما الخراطيم لغسل الأشجار في الشارع وحول القصر. تعلَّقت بحبل أمسك به الفلبيني فوق السطح، تدليت لتنظيف الزجاج والإطارات. معي محلول ببخاخ لتلميعها.

كانت عربات النظافة في الخارج تكنس وتغسل الشوارع.

في العصر تناولنا الغذاء معًا في الحديقة. نرمق القصر يتألّق في أشعة الشمس التي انحدرت في طريقها للغروب.

ريشيم مبتهجة، وفرْحة بعينيها، قلت لها الكلمة الوحيدة التي تعرفها بالعربية:

ـ كلّه تمام؟

ابتسمت، غطّت جانب وجهها خجلاً بطرحتها الملوَّنة:

ـ كلّه تمام.

قالت واحدة من الباكستانيّات إِنَّهن سيخرجن الليلة معًا يشترين بعض الحاجات لأهاليهن، لن تسنح فرصة كهذه بعد ذلك، أن يكن معًا في الشراء.

وقال فلبيني: إِذا أردتن. أوصلكن لأيّ مكان، وأعود لآخذكن.

ـ آه. توصلنا للأسواق، وتعود بعد ثلاث ساعات.

تساءل فلبيني آخر: سيأتون باكرًا؟

ـ الفريق يأتي باكرًا، ومعه البعض. والباقي يأتون على أفواج.

ـ وأبو عامر؟

ـ لا نعرف فوجه ولا موعده. ربما بعد يومين، الأفواج كلّها زمنها أربعة أيام.

نهضت الباكستانيّات ومعهنّ أواني الطعام. ريشيم متعجلة، سبقتهن، وهن تبعنها بنظراتهن وابتسمن. وخطر لي أنّها لابد ستلتقي بزوجها في الأسواق، وربما سمحت لهما الظروف بتبادل الكلام ولمس الأيدي في الخفاء.

وسأل فلبيني كان مضطجعًا على جنبه فوق الحشائش بعد مغادرة الباكستانيّات:

ـ وأين الليلة؟

ـ وأين؟ في المقهى طبعًا. ألديك فكرة أخرى؟

ـ عندي. لا أخلو أبدًا من الأفكار.

ـ هات ما عندك.

ـ أردني في الضواحي. لا أعرف أيّ ضاحية. نسأل ونصل. كان عليه نذر. ووصل إليه أمس خبر بأنّ ما تمنّاه حصل. يقيم وليمة، دعا إليها كل من يرغب، ويقال إنّه اتفق مع أصحاب له من الهنود ليقدّموا عرضًا من الغناء والرقص. الكثير سيذهبون.

ـ أي نذر؟

ـ أن تموت زوجته.

انفجرنا في الضحك، وهو تقلّب فوق الحشائش صاخبًا ثم قعد:

ـ ما أقوله حقيقي. ليست نكتة.

ـ ولم يريدها أن تموت؟

ـ وما أدراني. إسأله ـ مشيرًا نحوي ـ هو منهم ويفهمهم أكثر. الواحد عنده بدلاً من الزوجة أربع. لا أعرف متى يجد الوقت أو المزاج لينكحهن.

ـ ومن قال إنَّه ينكحهن؟

انفجروا في الضحك مرة أخرى، وغادرتهم مبتسمًا.

* * *

مشيت أمام قصر «أبو سالم» ودرت حوله. الشرفات كلُّها خالية، أنوار الدور العلوي مطفأة، العاملون بالقصر في الدور الأرضي حيث تظهر الأضواء. سيكون صعبًا أن تلقاني في وجودهم، الخطأ خطأي، كان عليَّ أن أوافيها قبل ذلك بأيام. لا يزال لديها ما تقوله، وكنت أميل لتصديقها بعد ما رأيته من حالها، لا تحكي واحدة عن هذه الأمور لرجل عرفته صدفة أو حتى بدون صدفة إلاَّ بعد أن ضاق بها. بالطبع سأكون عاجزًا عن مساعدتها لو كانت في مأزق، لكن على الأقل أسمعها.

تواريت بين الأشجار في مواجهة القصر، هي لن تدعوني في وجودهم. قلت ربما خرجوا لقضاء السهرة أو لشراء أغراض لأهاليهم كما فعلوا في قصر أبو عامر. لن تسنح فرصة ليخرجوا معًا بعد ذلك، المزاج واحد، والتفكير واحد. ربما خرج الجميع الليلة من كافة القصور.

وانتظرت.

انسابت سيّارة ڤان من بوابة القصر، ولمحت وجوها كثيرة بداخلها. بعد قليل ظهرت زاهية في الشرفة. تقدَّمتُ إلى البوّابة ونظري إليها، رأتني واستدارت إلى الداخل. تنتظرني كما في كل مرّة بباب القصر، قادتني إلى السلّم الداخلي، وصعدنا إلى الحجرة. المقعد. وجلستُ. أمامي المنضدة الصغيرة فوقها أدوات الشاي. تقف ساكنة، ويداها معقودتان أمامها. بحّة في صوتها:

ـ قلت إنَّك لابدَّ ستأتي. يعودون غداً.

قعدتْ في مكانها على السرير، وجهها هزيل منطفئ. كدت أسالها إن كانت تشعر بمرض؟ وعدلت عن ذلك، فربما ضايقها سؤالي.

تلبس جلباب بيت بنصف كُم. وشال خفيف حول رقبتها. ذراعاها بضّتان. قالت بلا اهتمام:

ـ كانا أجمل من ذلك. لا شيء يبقى على حاله.

طلبت سيجارة، ومالت لأشعلها. قالت:

ـ ستة أعوام. دخّنت فيها خمس سجائر.

ـ وأين تدخنينها؟

ـ في القاعة بالدور الأول، أعثر على علبة نسيها صاحبها. أدخِّن السيجارة، وأسعل براحتي، وأغسل فمي وأصعد إليها. عندما أقترب قليلاً منها أحسّ أنَّها كادت تشمّ رائحة الدخان، وأبتعد. لا شيء يفوتها في القصر. كل ما يجري فيه. وتأتي إليها أخبار كثيرة عمَّا يحدث في القصور الأخرى. كانت تحكيها لي. الخدم في الإمارة أشبه بشبكة التلفونات ـ تضحك خفيفًا ـ الضحك يتعبني. حلقي ناشف. يلتقون في المحلاّت والأسواق ويتبادلون الكلام والأخبار، وهي تستفسر منهن. تستدعي الواحدة بعد أن تعلم بعودتهن من السوق، وتجلسها في هذا المقعد، والبنت تحكي ما سمعته. يحبونها في القصر، أنا أيضًا أحببتها في العام الأول.

سكتت. وأطفأت سيجارتها قبل أن تنتهي منها:

ـ آه. من كان يظنّ؟ من البداية كنت متردِّدة في المجيء. لي عملي في مصر. مس زاهية. حضانة أجنبيَّة. نشرف على الأطفال حتى سنّ الرابعة. مرتبي معقول. يكفيني ويساعد في البيت. مرتّب زوجي صغير. طلباته قليلة. المهم. حتى لا أطيل ويضيع الوقت. جئت. وظيفتي التي تعاقدت عليها جليسة. شرحوا لي حالتها. شهور قبل سفري وأنا أقرأ كتبًا تحكي الحواديت. نوادر جحا، ألف ليلة، حكايات الخلفاء، والجواري في

قصور الحكام. يبحث عنها زوجي في المكتبات القديمة ويأتيني بها. وشاهدت العديد من الأفلام المصريَّة القديمة، عبد الفتاح القصرى. استيفان رستي، وسراج منير، وأحاول أن أقلِّد بعض حركاتهم. آه. ومجلاّت نجوم السينما وأخبارهن. القصد، أصبح عندي خزين كبير لأسلِّيها في رقدتها. ومن أول يوم بعد مجيئي، استلمتني هي لتحكي. كل ما جرى لها من صغرها حتى الآن. حكته مرّات ومرّات. وصاحباتها ومن عرفتهم. تحكي وأسمع. أصبحت وظيفتي السماع. والآن بعد ما جرى لا أعرف ما ستكون وظيفتي، وحتى بعد أن صعد ياسر إلى حجرتي لم تتوقف عن الحكي. يصعد مرّة أو مرّتين في الأسبوع. لم تعد تسألني عمَّا يقوله أو يفعله، تكتفي بنظرة تحتويني لحظة خروجي في الصباح من حجرتي، وأجدها فطرت. ساعدتها واحدة من الباكستانيَّات، وأرى فطوري ينتظرني على المنضدة. ما أن أنتهي حتى أعمل القهوة لنا وأجلس في مقعدي. تقول ببشاشة:

ـ توحشينني بتأخرك في الصباح. إقرئي الجريدة أولاً.

وجاء يوم. وكان مضى ما يقرب من الشهر على صعوده لحجرتي وقالت مبتهجة:

ـ كما قلت لك. باع الشقة في الضاحية. ياسر. لا يفهمه غيري.

وأخبرتني أنَّه عاد ليقيم في القصر، ويرتِّبون له الدور التحتيّ، ونبَّهتني إلى عدم النزول إليه مهما حاول، أي عذر، المهم لا تنزلي.

ـ وما العذر إذا صمّم؟

ـ أعرف أنَّك تودِّين النزول ولقاءه في غير حجرتك. لو نزلت تنزلين من نظره. تصبحين كالأخريات. لا أريد أن أفقدك. كما ترين لا أستغني عنك. أنت الآن منِّي. ستجدين عذراً. قولي إنَّني أستدعيك مرّات في الليل.

وكما قالت. كلَّمني ياسر في أمر نزولي إلى حجرته، لنقضي الليل بطوله معًا. فهو يحب أن يصحو ليجدني بجواره، وقلت له ما قالته. وأطرق صامتًا. لا أخفي عليك أنَّني بدأت أميل إليه. وقال:

ـ آه. صحيح. نسيت.

واستمرَّ الحال على ما هو عليه.

آه. أحكي لك. كنت مرّة قاعدة أقرأ لها الجريدة، تحت أخبار المجتمع والحوادث. ولمحتها تنظر إلى ركبتي. القميص لا يغطيها ونظرتُ حيث تنظر، ورأيت الشامة. عندي واحدة في حجم حبة الترمس بلون بني فوق ركبتي. قالت:

ـ عندي واحدة أختها جنب سرّتي. كمّلي.

عاودت القراءة. وهي استرخت في رقدتها وأغمضت عينيها. قرأت حادثة، وحادثة، في الثالثة قالت:

ـ زايد. اسمه زايد.

اعتدلت في رقدتها ملتفَّة نحوي، وأنا أنظر إليها غير فاهمة. قالت:

ـ فاكرة الولد اللي حكيت لك عنه. عندما بكيت على صدره. إسمه زايد. أول مرة أذكر لأحد اسمه.

عادت لاسترخائها. هي ذكرت لي اسمه من قبل. توقفتُ عن القراءة ولم أعلّق، وانتظرتُ. قالت:

ـ أخبرني مرّة أنَّه رآني في الحلم. كنَّا في ظلّ شجرة خلف البيت. وهو راقد على ظهره ورأسه على فخذي. يحلو له في رقدته أن يضع ساقًا على الأخرى ويهزّ قدمه. وأنا مبسوطة أنَّه مبسوط. قال إنَّه خلع عنِّي كل ما ألبس. وحاول مرة ومرة. وكنت أصدّه في عنف. لم أمكِّنه من نفسي. سألته:

ـ ورأيتني عارية؟

ـ آه. بالإمارة عندك شامة على بطنك.

وأنا اتجننت. دفعت رأسه عن رجلي. قعد فزعًا، نسي أن يشدّ الجلباب على ساقيه عندما تعرّتا. ساقاه شديدتا النحول. وأنا أصرخ:

ـ كيف تجرؤ أن تراني عارية؟

ـ حلم. واللّه حلم.

وأهدأ. أسوِّي شعري وأسأله:

ـ وكم مرة رأيتني؟

ـ لن أقول.

لم يقل أبداً. تضحك وتهزّ رأسها وسألتني:

ـ إلا يا زاهية. أيمكن ذلك؟ يراك أحد في الحلم. ويرى منك ما لم يره من قبل؟

ـ أكثر من ذلك. ترين واحداً في الحلم لم يسبق أن رأيته في حياتك، وتلتقين به وتجدينه كما رأيته في الحلم.

ـ الآن فهمت. كان صدري أيامها صغيراً. يعني معقول في سنِّي. حين ألقاه أحاول أن أبرزه، أشدّ الجلباب وأفرد عودي. ويرى محاولاتي ويسكت. حتى كانت مرّة قال:

ـ رأيته. رأيته أكثر من مرة.

لم أفهم وقتها ما يقصد، وخجلت من سؤاله.

آه. كان لها حكايات! ماذا كنت أقول. يأخذني الكلام هنا. وهنا. القصد. خمسة شهور وربما ستة ووضعي كما حكيته لك. لم أعد أفكر أو أهتم. إلى أن جاء يوم. لا أنساه أبدًا، كان في غفوته القصيرة جانبي. ثلاثة أسابيع وأنا متردِّدة، ثم قلتها:

ـ ياسر. خايفة أكون حاملاً.

هبَّ قاعدًا. أفزعني. يحدِّق في وجهي:

ـ ومانع الحمل؟ ألا تستعملينه؟

ـ لم أستعمله. لم يكن في بالي أن أعرف أحدًا. وقلت أستريح منه. ونسيت.

ـ آه. آه. لو عرفتُ كنت استعملت الواقي.

أطرق صامتًا. وغمغم:

ـ طيِّب. بسيطة. شهران أم أكثر؟

ـ الدورة مقطوعة من شهرين.

ـ بسيطة. سنجد حلاً.

بعد يومين جاء. خلع حذاءه وظل بجلبابه. تربَّع في الفراش. وبعد صمت قال:

ـ يا زاهية. لا أعرف ما أقول لك. كما ترين لا خلْفة لي. خديجة لم تنجب ولن تنجب. يئستُ، صرفت الأمر من دماغي. قلت حظي والأمر للَّه.ومن يومين قلت لي الخبر. نزلت من عندك، ومن ساعتها لا أنام إلاّ نادراً. فرحة الدنيا. لا تدرين أن يكون لي ولد أخيراً. وبعد كل ما رأيته. نعمة من اللَّه تأتي في غفلة وبعد يأس. ثم أتخلَّص منه بنفسي. صعب. صعب، أموت بعدها. أخبريني بأيّ حلّ آخر وأنا من يدك ليدك.

فزعت من كلامه وقعدت ساكتة. التفت نحوي:

ـ تبكين؟ ماذا قلت لأبكيك؟

وصوت بكائي ارتفع. أخذ وجهي في صدره. همس:

ـ إنما سألتك إن كان هناك حلّ آخر. ليكن ما تريدين. أعطني يومين وينتهي الأمر.

لم أتخيَّل أبداً أنَّه يمكن أن يحزن هكذا. كان مهدَّلاً بجواري، وعيناه تائهتان. قال:

ـ كل الطرق مسدودة. حتى الزواج منك. وكأنَّه عقاب إلهي. لتكن مشيئته.

وخرج.

قلت أحكي لخديجة.

وحكيت.

كانت مسترخية. بعد لحظة اعتدلت. وجهها متجهِّم، ولونه مخطوف. وأنا خفت. توقفت عن الكلام، وهي قالت بنبرة صارمة:

ـ إِحكي. إِحكي للآخر.

وحكيت.

ظلّت في قعدتها بعد أن انتهيت تحدِّق في أرجل المقعد، وقالت في صوت خافت:

ـ أدخليني الحمّام.

أدخلتها وعدت بها. رقدت ووجهها للناحية الأخرى وقالت:

ـ أتركيني.

تركتها لحجرتي.

تناولنا الفطور في اليوم التالي بدون كلام. والغذاء أيضًا.

تأكل وآخذها للفراش. ترقد ولا تطلب منِّي البقاء.

أعود لحجرتي.

لا أعرف ما يجري. أنتظر.

يومان لم أر مثلهما أبدًا. لا نوم. ولا صحيان. ولا قعاد. كان البكاء يخفِّف عنِّي، ولا يأتي البكاء. عيناي جافتان.

أنتظر.

بعد المغرب رنّ الجرس. ذهبت إليها. قالت:

- انزلي تحت في القاعة. ياسر قادم.

نظرت إليها متسائلة. أن تقول كلمة. لم تقل.

نزلت.

لمحته بعد قليل صاعداً إليها. وطالت قعدتهما، ثم رأيته نازلاً. هرولت إليها.

أشارت لي أن أجلس في المقعد، وجلست. قالت:

- حكيت مع ياسر. هو أيضًا تعبان. لم يكن على البال. ولا خطر لي أن أنبِّهك. ربما لأنَّ الخلفة لم تعد تشغلني. المهم نصل إلى حلّ. أنت تريدين التخلُّص منه. مجيئه فيه هلاكك. وهو يتمنَّى أن يحتفظ به. من بداية زواجنا وهو يريده. ذهبنا

شمالاً وغربًا، عندما تبدو بارقة أمل وكأن الحياة عادت إليه . آه . سنوات . صعُب عليّ حاله .أقول له :

« تزوَّج يا ياسر. أزعل قليلاً . إنما لا يهم » .

ويقول : « لا يوجد مثلك يا خديجة » .

آه . صعْب . بعد أن ظهر له الولد . لن يتحمَّل فقْده أبدًا . يروح فيها . وقلت أكلِّمك، يجيء الولد . ولا نقول إنَّه منك .

أنظر إليها غير فاهمة . قالت :

ـ تلدين الولد . ونقول إنَّ أخرى ولدته . ويروح عنك الخطر.

ـ ومن الأخرى التي ترضى؟

ـ أنا مثلاً . وأنا الأصلح . الولد يأخذ إسم أبيه، وواحدة غيري ستكون غريبة علينا . ويا عالم . تطلب الزواج منه، ولا يرضينا . لا أنا ولا أنت . ويا ترى معاملتها مع الولد؟ طول اليوم وأنا أفكر. لو وافقتِ نرتب الأمر.

كلام منِّي وكلام منها ووافقتُ . ما أخبرتني به كان معقولاً . ويبعد عنَّا الشر أنا والولد .

في نفس اليوم أشاعت أنَّها حامل .

وقلت لها لن يصدِّقك أحد.

قالت: ولم لا يصدقونني. الطب يفعل المعجزات. ولن أسمح لأحد بزيارتي أو دخول حجرتي.

وما قالته حصل.

لا أحد يأتي. ولا نغادر الحجرة. أنا وهي محبوستان. حتى الخدم مُنعوا من الدخول. تأتي الخادمة الباكستانيَّة بصينيَّة الطعام وتتركها أمام باب الحجرة المغلق، وتعود لتأخذها بأوانيها الفارغة، ومعها سبت الغسيل.

ياسر في الدور التحتيّ يقابل من يأتون للتهنئة، أقارب أو معارف.

كان أمرًا طبيعيًّا في نظرهم على ما يبدو أن تحمل خديجة. كثيرات حملن بعد سنوات من فقدان الأمل.

ويعتذر لهم عن مقابلتها. لأنَّها أوامر الطبيب.

ـ حالتها. كما تعرفون.

يصعد إلينا كل ليلة تقريبًا، لم يعد يدخل حجرتي. يبقى معنا قليلاً، يسأل عن الأحوال ويمضي، تلتقي نظراتنا ويبتسم خفيفًا، ولا أفهم معنى ابتسامته، ربما كان يطمئنني.

خديجة ترعاني. تعد لي كوب اللّبن بنفسها كل صباح، وتدفع نحوي بالأطعمة المفيدة لحالتي، وتقيس درجة حرارتي كل صباح. لا تغضبني، وتحكي ما يضحكني. سألتني:

ـ أيَّهما تفضلين. ولد أم بنت؟

ـ لو كان الأمر بيدي يبقى ولد. عندي البنت.

ـ أنا أختار البنت. ياسر لابد أنَّه سيفضِّل الولد.

وتقول:

ـ ما رأيك؟ نختار إِسمًا من الآن. اختاري أنت أولاً.

وتدوّن في ورقة ما اتفقنا عليه من الأسماء. وتقول:

ـ نريها لياسر. يختار هو أيضًا.

وتأتي طبيبة إِنجليزيَّة بصفة دوريَّة، تتابع حالتي.

تسألها خديجة السؤال بعد السؤال بلغتها، ثم تخبرني أنَّني بخير.

نلعب الكوتشينة، ونشاهد التلفزيون، ولعب الألغاز التي يحملها لنا ياسر. وتحكي. ويمضي اليوم.

الشهر الأخير من الحمل تعبت. أصحو من غفوتي أو غيبوبتي لأجدها بجواري، تجفف بفوطة العرق عن وجهي. هواء

التكييف البارد ممنوع عنِّي. ترفع رأسي لتسقيني مشروبًا من كوب في يدها. لا أعرف ما هو، ولا سألت.

ويأتي سالم. ولدتُه في حجرتي. خديجة على مقعد أمام بابي المغلق، والطبيبة والممرضة معي. آه. جاء، أصوات كثيرة في الدور التحتي. صباحًا ومساء.

قالت لي خديجة إنَّهم من قدموا للتهنئة.

هي معي في الحجرة أغلب الوقت. تلقي أوامرها للممرّضة التي بقيت أسبوعًا بعد الولادة.

كُتبت شهادة الميلاد كما اتفقنا: ياسر الأب، وخديجة الأم. رغم اتفاقنا أوجعني كلامهما عن الشهادة.

أسبوع وسالم بجواري. أرضعه، وتنظفه الممرّضة. وينام.

ويأتين لزيارتها وتهنئتها. هي راقدة في السرير مغطاة بملاءة خفيفة، بجوارها سالم في لفّته. مقاعدهن على بعد من الفراش. أقف عند باب حجرتي وبجانبي مقعد صغير، أفضل أن أكون واقفة، أستطيع أن أرى سالم. ينهضن من وقت لآخر، ويملن على الفراش لرؤيته حين يتثاءب أو يمصّ إصبعه، ويضحكن. وتقول واحدة منهن:

ـ شبهك يا خديجة.

ـ حتة منك.

تبتسم وتقول:

ـ شبه ياسر أكثر.

وتحكي لهن ما رأته من متاعب وأوجاع في حمله وولادته، ورفساته التي توقظها من النوم، وكانت تصيح به:

ـ أسكت عايزة أنام وكان يسكت.

ما قالته لهنَّ عن أوجاعها وآلامها هو نفسه ما حكيته لها أثناء حملي. حتى ما قالته عن رفس سالم في بطنها حكيته لها من قبل. تعيد حكْيه لكلّ من يجئن لزيارتها. لا تضيف شيئًا، وأتعجَّب من استيعابها لما قلته لها، ونبرة صدق تتبدَّى في صوتها. لا أعرف ما كان يقلقني وأنا أسمعها.

رتّبوا حجرة لسالم بالدور التحتي. الحجرة حلوة وحسنة التهوية، سريره معلَّق به الكثير من الألعاب الملوَّنة، تصدر أصواتًا هادئة. سرير المربية الإنجليزيَّة بجواره.

لم يعجبني الحال. كنت أفضِّل أن يكون معي. وسكتّ.

المربِّية نظيفة، ووجهها حنون مبتسم، طمأنني ذلك قليلاً.

أنزل إليه في وقت الرضاعة. أمسك دموعي بصعوبة في كل مرّة أرضعه، والمربية ترقبني في تعجب، ثم أشارت لي ألا أرضعه وأنا منفعلة. وتعودتُ الأمر.

تصعد به المربية إلى خديجة مرتين في اليوم، وأكون في انتظاره. تحمله خديجة بين ذراعيها، تؤرجحه خفيفًا وتناغيه، وهو يناغيها. إصبعها يداعب ذقنه، ترقده بجوارها وتهمس له بما لا أسمعه.

ويكبر قليلاً، وتعلو مناغاته، وتكثر حركة يديه. كانت تعرّي ساقيه وتتركه يلهو بهما في أشعة الشمس بجوارها.

وأعتاد الوضع، ما من سبيل آخر. أرى سالم عندما أريد، وأبقى معه في حجرته ألاعبه. ربما قالوا للمربية أنَّني الدادة أو المرضعة، لم أستفسر. وقت نومه فقط لا يسمح لي بالدخول عنده، صدّتني المربية مرّة، وكانت المرّة. لم أحاول بعدها. أوقفتني بالباب وواربته وأشارت لي أنَّه نائم، وأنا تردَّدت قليلاً وانصرفت. الأفضل أن ينام في حضني. أربت على ظهره وأتحسَّس شعره حتى يغفو، وكأنَّني لم أقم بتربية أولاد من قبل.

أمر في صعودي ونزولي بمكتب ياسر. أحيانًا يكون واقفًا بالباب. أتمهَّل قليلاً وأنا أمرُّ به. نتبادل ابتسامة خفيفة، لا

يدعوني للدخول، أنا أيضًا لا رغبة لديَّ في الدخول. لم يعد عندي ميل إليه. ولا أعرف ما حصل لي، لم تتغيَّر معاملته معي، عادت إلى ما كانت عليه قبل دخوله حجرتي.

خديجة هي من حيّرتني. لم يحدث غضب، ولا زعل، ولا كلام مؤلم. لم تعد تحتاجني، لا فطور معًا، ولا قهوة الصبح، ولا حكي، كأنما نفضت يدها منِّي. أدخل عليها في الصباح أجدها فطرت وشربت قهوتها، فطوري في انتظاري. أجلس في المقعد، أنتظر وأنتظر، هي مشغولة عني بالاستماع إلى مسلسل بالإذاعة، تضحك وتقول:

ـ دمه خفيف.

من مسلسل لآخر. والتلفزيون. والفيديو. كم هائل من شرائط الفيديو. حين تطول قعدتي بلا كلام أنهض إلى حجرتي. حتى دخولها الحمّام في الليل كانت تستدعي بالجرس خادمة من الباكستانيَّات.

أسأل نفسي وما عملي في القصر؟

يأتيني مرتبي كل أول شهر في مظروف مغلق، أجده على الكوميدينو بجوار سريري. لا أدري ما أفعل به، لم أقم بعمل لأستحقّه. قبل ذلك كنت أعطيه للسائق ليقوم بتحويله لحسابي

في القـاهرة، ومـرَّات يلمـحني ياسـر وأنـا أمـدّ المظروف للسـائق فيقول.

ـ البنك في طريقي. هات أحوِّله لك.

الآن أضع المظروف في الدرج مع الأخرى.

سالم يكبر. يلعب في الحديـقة مع المربية. أقف على بعد. لا أتحمَّل انصـرافه عنِّي، ولا تجاهـله لي حين أسعى إليـه. جـرّبت مرّات كل ما أعرفه من حيل لاجتذابه، يـرمقني متعجِّبًا ويبحث عن المربية.

وأراه عندما يصعد إلى خديجة، يرمي بنفسه في حضنها وقد فتحت له ذراعيها، ويظل غاطسًا في لحمها. يتهامسان، لا أسمعهما في وقفتي، ولا يبدو أنَّها تراني. أحسّ وكأنِّي أتطفَّل عليهما، أنتظر أن تناديني وتقرِّبه منِّي.

هو بعيد. ويزداد ابتعادًا كلَّما كبر. أكتفي بمشاهدته عن بعد، ربما كان اقترابي لا يريحه.

كان يلعب مرّة في الحديقة، وكنت على بعد خطوات. لمحته يهمس للمربية التي التفتت نحوي وظهر الضيق على وجهها.

عملي جليسة، لهذا جئت. والآن لا أعرف لي عملاً.

كنت منحنيًا أسمعها، متجنِّبًا النظر إليها، توقعت نحيبًا وهي تنهي كلامها. فوجئت حين اعتدلتُ في جلستي بعينيها صافيتين، بشحوب وجهها الهادئ، ويديها المنقبضتين في حجرها.

يطول الصمت قليلاً. همستْ:

ـ لا أعرف ما تقوله الآن عنِّي.

ابتسمتُ لها.

ـ قلت أحكي لك. وحكيت. لا أظن أنَّنا سنلتقي مرّة أخرى.

أقف صامتًا لا أجد ما أقوله. تبادلنا نظرة أخيرة، وخرجتُ.

قدت السيّارة إلى قصر «أبو عامر». وقصدت حجرتي: قلت لن أفكر في شيء.

* * *

أقواس النصر بالشوارع مزدانه بالورود. يتوسَّط كلاً منها صورةٌ لواحد من أعضاء الفريق وهو يتلقى الكرة على مشط قدمه.

مررت بالمخفر في طريقي. الهنديّ القائم بالأعمال في بذلته الرسمية. لونها أخضر قاتم، وشرائط صفراء على كتفيها. يقف مشدوداً بالمدخل، شاربه المبروم يلمع بالدهان، ومسدّسه في الجراب معلَّق على جنبه.

الموقوفون داخل الحبس، مدُّوا أذرعتهم خلال القضبان يلوِّحون بأعلام ورقية صغيرة ملوَّنة.

نساء وأطفال تزاحموا بشرفات البيوت والنوافذ.

وقفت مع آخرين على جانبي الطريق المؤدِّية للمطار ننتظر مجيء اللاعبين بعد أن هبطت طائرتهم. أغانٍ بلغات مختلفة تذاع من مكبِّرات صوت يحملها البعض. حلقات المغنين

والراقصين صغيرة، متناثرة وسط الجمهور الكبير الذي احتشد بطول الطريق من المطار إلى مدخل الإمارة. سمعت أغنية باللهجة المصريَّة:

«سالمة يا سلامة. رحنا وجينا بالسلامة».

مرُّوا في عربات مكشوفة، كانوا واقفين داخلها والورود تتساقط فوقهم، واندفع الجمهور وراء العربات.

انتظرت حتى هدأ الطريق، وعدت إلى القصر.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

خايلتني زوجتي والنوم يأخذني. جاءت كما رأيتها لدى ذهابي في إجازة. كنت واقفًا وسط الحقائب. أقبلتْ مهرولةً، خجلةً من الفرحة التي غمرتْها، تنظر هنا وهناك حتى لا تلتقي عيونُنا. تلبس جلبابًا خفيفًا بدون كمّ، مفتوحَ الصدر، يشفّ عن انسياب فخذيها. متأهّبة لترمي نفسها في حضني... وقفتُ ساكنًا. أخشى الحركة. كم افتقدت هذه اللّحظة...

مرة أخرى يقف بنا محمد البساطي في هذه الرواية على الحدود بين الواقع والخيال، في مهارة لا يجيدها إلاّ القليلون. إنّها رواية عن الغربة التي تسحب الروح، وتلمس واقعًا لا يقتصر على المصريين بل يشاركهم فيه أبناءُ شعوبٍ أخرى.